العلماء العرب

أينشتين العرب

علي مشرفة

تأليف

د. عطيات أبو العينين

دار الفاروق
للاستثمارات الثقافية

علي مصطفى مشرفة

أينشتين العرب

الناشر: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش م م)

العنوان: ١٢ ش الدقي - الجيزة - مصر
تليفون: ٣٧٦٢٢٨٣٠/ ٠٢ - ٣٧٦٢٢٨٣١/ ٠٢ - ٧٦٢٢٨٣٢/ ٠٢/ ٠٠٢ -
٣٧٤٨٠٧٢٩/ ٠٢ - ٣٧٤٩١٣٨٨/ ٠٢
فاكس: ٣٣٣٨٢٠٧٤/ ٠٢

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية.

أبو العينين، عطيات.

علي مصطفى مشرفة: أينشتين العرب / تأليف. د.عطيات أبو العينين.- ط ٠١ - الجيزة: دار الفاروق للاستثمارات الثقافية (ش م م)، [٢٠٠٨] ١٢٨ ص؛ ٢٣ سم

تدمك: 978-977-455-272-7

رقم الإيداع: ٢٢٦١١/ ٢٠٠٨

١ - العلماء

٢ - مشرفة، علي مصطفى، ١٨٩٨ - ١٩٥٠

أ- العنوان

ديوي: ٩٢٥

الطبعة العربية الأولى: ٢٠٠٩

www.daralfarouk.com.eg
www.darelfarouk.com.eg

علي مصطفى مشرفة

أينشتين العرب

الدكتورة

عطيات أبو العينين

مقدمة

كم أنبت النيل العظيم، وكم سينبت! أرض مصر مهد الحضارات، وفجر العلم الذي أنار البشرية وعلم اليونان... حقًّا هذه هي مصر، ولها المجد بسواعد بنيها، أنبتت الرجال الأشداء أبناء الماء والطين والشمس المشرقة، فكانت درة على جبين العروبة والإسلام، ومنبرًا للعلم والأعلام.

ومن خيرة أبناء النيل وخيرة العلماء الذين أضاؤوا صفحات التاريخ المصري، وكللوه بأكاليل الفخار الدكتور مصطفى مشرفة أينشتين مصر والعرب، هذا الإنسان الذي كرس حياته للعلم والبحث البنَّاء راجيًا أن يتحقق الحلم، وأن تعود مصر لمجدها الحضاري، كان أول من دعا لمشروع مصر النووي آملًا أن تمتلك مصر القوة الرادعة، وكم علت صيحاته بضرورة الاهتمام بالبحث العلمي، فكان يراه سبيل مجد الأمم حتى لا تُفترس في عصر لا يعترف إلا بقانون القوة.

إن الدكتور مصطفى مشرفة شخصية فريدة من نوعها كان مثالًا للعالم المنكب على أبحاثه المستغرق في الدراسات العلمية حول الذرة والطاقة النووية، فلا ينزل محله في البحث العلمي الذري عن ألبرت أينشتين، ومن هنا أردنا بهذا الكتاب أن يكون جامعًا لصورة د. مشرفة الحياتية والفكرية ولأفكاره وأبحاثه العلمية وميوله السياسية من يوم أن استقبلته تربة مصر وليدًا يحبو على أرضها، وحتى اتشحت عليه مصر والعروبة والإسلام شهيدًا حفر اسمه في سجل العلماء المقتولين على جنبات طريق البحث العلمي.

"لا تزدهر حضارة أمة تهمل دراسة ماضيها "

د. مشرفة

أمة بلا عقول

اجتاحتني عاصفة من الرفض لكل ما يحدث حولنا من أحداث، ربما لم تكن الأولى من نوعها، وكذلك ليست الأخيرة، ولكن هذا حالي كلما قرأت عن اغتيال العقول العربية المفكرة وبخاصة المصرية؛ هؤلاء الذين أعطوا ولم يأخذوا سوى الغدر والخيانة، وكأن العدو اللدود أصر ألا يكون هناك مستقبل لهذه الأمة؛ فهو يريدها أمة بلا عقول.

وعندما تبزغ عقول يستشعر منها الخطر على مستقبله وتواجده في المنطقة، فلابد أن يستأصلها من طريقه، ولن يكلفه ذلك إلا سيناريو تم إعداده مسبقًا، لمثل هذه العقول الجبارة.

عندما قرأت سيرة د. علي مصطفى مشرفة، شعرت بأحاسيس متناقضة وعاطفة جياشة، تجاه هذا الرجل الذي كرَّس حياته للعلم وخدمة بلاده التي أحبها أكثر من نفسه، وأهم هذه المشاعر التي تعمل بداخلي؛ إصراري على أن تتعرف الأجيال الجديدة: مَن هذا الرجل الذي اهتز وخاف منه العدو وراح يكيد له، ولكن على قدر ذكائه وأهميته في العالم الغربي كانت مفاجأة موته.

وفي تصريح لمسؤول في الخارجية البريطانية يقول فيه: إن سلطات بلاده تراجع الإجراءات المتعلقة بدراسة الطلبة الأجانب للمواد الحساسة في الجامعات البريطانية.. والمقصود بـ «المواد الحساسة»: الهندسة النووية، وتكنولوجيا الصواريخ، والدفع النفاث، والتقنيات الكيميائية والجرثومية، التي يمكن أن تستفيد منها الدول الخطيرة.

وهذا التصريح يأتي كجزء من الحصار العلمي والتقني الموجه ضد إيران ودول عربية مهمة في المنطقة، وهو لا يختلف في هدفه النهائي عن القانون الشهير الذي أقره مجلس النواب الأمريكي عام ٢٠٠٢؛ بخصوص حظر أو تشديد الرقابة على بعض التخصصات التي يدرسها طلاب سبع دول أجنبية، منها أربع دول عربية!

ويعد هذا القانون تأصيلًا للمهام الموكولة للجنة المتابعة الأكاديمية، التي تم إنشاؤها بعد تفجيرات نيويورك؛ لمنع طلاب بعض الدول من دراسة التخصصات الحساسة مثل: تكنولوجيا الصواريخ، والفيزياء الذرية، وأنظمة التوجيه، وأشعة الليزر، والسبائك المتقدمة.

وعن أحد الطلاب العرب يقول: إنه أصبح من المعتاد أن يطلب من بعض الطلاب الأجانب أو المختبرين مغادرة القاعة، والأمر يتعلق بالتقنيات العسكرية الرائدة!

وغني عن القول: إن الحكومات الغربية تحاول من خلال هذا الحصار الأكاديمي الحدَّ من تسرب العلوم والتقنيات المتقدمة إلى الدول المارقة حسب مفهومها، وهي بهذا القانون تقنن عادة قديمة بدأت مع قيام الثورة الكوبية؛ حين منعت أمريكا الطلاب الكوبيين من دراسة التخصصات العسكرية الحساسة.. كما تكررت نفس المعاملة مع الطلبة الليبيين؛ حين سرت في الثمانينيات «حمَّى القذافي»، وسعيه لامتلاك قنبلة نووية، ثم توسعت القائمة بعد ذلك؛ لتشمل طلبة إيران، وكوريا الشمالية، ولبنان، وسوريا!

وكانت واشنطن قد تطوعت – بعد تفكك الاتحاد السوفييتي في أوائل التسعينيات – بدفع رواتب علماء الذرة الروس؛ خوفًا من هجرتهم إلى الدول

العربية، كما حرصت على شراء التقنيات الروسية المنسية أو المجمَّدة؛ خوفًا من تسرُّبها إلى دول المنطقة، وكأن أمورًا كهذه تشغل بالنا!!

المعضلة الأخلاقية التي تقع فيها بعض الدول المتقدمة؛ هي أنه عندما تتأكد من تفوق أحد الطلاب المشبوهين - رغم كل عوامل الحصار الأكاديمي - فإنها تأمل - أولًا- أن يتكفل مجتمعها المترف إقناعه للبقاء.. ثم - ثانيًا- تتدخل بطريقة غير مباشرة؛ لدعوته للعمل في إحدى المؤسسات الحكومية، أو الشركات المتعاقدة مع وزارة الدفاع. أما الخطوة الثالثة؛ فقد تتضمن اتخاذ إجراءات استثنائية قاسية لمنع عودته إلى بلاده نهائيًّا، فحسب نظرية المؤامرة يتم سجن أو اغتيال كل مَن يرفض البقاء؛ بحيث يبدو الأمر كحادث عرضي.

وإلى اليوم ما تزال مصر تتذكر بأسًى اغتيال عالم الذرة الدكتور مشرفة، عندما رفض عرض أينشتين كأستاذ زائر لمدة سنة، وعالمة الذرة سميرة موسى التي نالت درجة الدكتوراه في الفيزياء الذرية، واغتيلت بسبب إصرارها على العودة لمصر، وقُيِّدَت القضية ضد مجهول.. ونفس المأساة تكررت مع عالم عربي آخر يدعى سمير نجيب، وكان متفوقًا في علوم الذرة، وعمل في أمريكا لفترة طويلة قبل أن يقرر العودة فجأة، فاغتيل قبل سفره بيوم واحد! وهناك أيضًا عالم الفيزياء سعيد بدير الذي رفض البقاء في ألمانيا وأمريكا، فأُلقِي من شرفة منزله من قِبَل رجل مجهول بعد وصوله للإسكندرية بيومين فقط.

وسواء صدقنا فرضية قتل النوابغ أم لا، فالمؤكَّد حاليًّا ظهور توجُّه رسمي في بريطانيا وأمريكا؛ لمنع تصدير العلوم الحساسة لدول تراها إرهابية، أو غير جديرة بالثقة!

إن العالم مصطفى مشرفة وغيره من العلماء الأفذاذ – الذين راحوا ضحية العلم وحبهم لبلادهم – قد عُثِر على جثثهم مغطاة بعلامات الاستفهام، وتتسع القائمة لتشمل د. مصطفى مشرفة المتوفى في ١٦ يناير ١٩٥٠م بطريقة بدائية للغاية؛ بالسُّم.

كان د. مصطفى مشرفة أول مصري يشارك في أبحاث الفضاء، والأهم من ذلك كان أحد تلاميذ العالم ألبرت أينشتين، وكان أحد أهم مساعديه في الوصول للنظرية النسبية، وأطلق على د. مشرفة لقب «أينشتين العرب»، وباتت ظروف وفاة د. مشرفة المفاجئة غامضة للغاية، وكانت كل الظروف المحيطة به تشير إلى أنه مات مقتولًا؛ إما على يد مندوب عن الملك فاروق، أو على يد الصهيونية العالمية.

ولكل منهما سببه؛ فقد يكون للنظام الملكي المصري في ذلك الوقت دور في قتله، خاصة إذا علمنا أن د. مشرفة قام بتشكيل جماعة تحت اسم «شباب مصر»، وكانت تضم عددًا كبيرًا من المثقفين والعلماء والطلاب، وكانت تهدف لإقصاء نظام فاروق الملكي، وإعلان مصر جمهورية عربية مستقلة، وذاع أمر هذه الجماعة السرية، ووصلت أخبارها إلى القصر الملكي؛ مما أعطى للقصر مبررًا للتخلص من د. مصطفى. أما الصهيونية العالمية فيكفي أن نقول: إن نظرتهم للطالبة النابغة د. سميرة موسى لن تختلف عن نظرتهم لأستاذها الأكثر نبوغًا د. مصطفى مشرفة، ولعبت الصهيونية لعبتها القذرة وهي التصفية الجسدية، وكانت نظرة واحدة تعني التخلص منهما ومن أمثالهما.

فقد مارست إسرائيل منذ نشأتها أسلوب الاغتيال للعديد من العلماء والباحثين العرب؛ حيث تحاول بشتى السبل منع وصول أيِّ تكنولوجيا متقدمة في أيٍّ من فروع الحياة إلى العرب، فهي تحاول جاهدة منع عودة العلماء العرب إلى بلادهم إن كانوا في بلاد غير عربية، ولا تستحي أن تقتلهم أو تخطط لهم المكايد إن كانوا في بلادهم، ولدينا أمثلة على ذلك، منها ما آل إليه مصير المهندس المصري الشاب عبد القادر حلمي وثلاثة من رفاقه العلماء، عندما اقتيدوا إلى السجن في أمريكا افتراء بتهمة التجسس لمصلحة مصر، ومحاولة تهريب مواد تكنولوجية رفيعة المستوى لها. وتشير المعلومات إلى أن المهندس المذكور كان ضابطًا سابقًا في الجيش المصري، تخرَّج في الكلية الفنية العسكرية عام ١٩٧١م، وكان يعمل في مركز بحوث الصواريخ، وقد حصل على درجة الدكتوراه من كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وعمل في الهيئة العربية للتصنيع، ثم هاجر إلى كندا ومنها إلى أمريكا؛ حيث عمل في وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية، وقدم الكثير من الابتكارات والاختراعات التي تطيل عمر الصواريخ ومدافع الهاون، وتطوير صاروخ سام، وزيادة سرعته، واخترع نظامًا جديدًا لتوجيه وإدارة أجهزة حرب النجوم والصواريخ المضادة للسفن، وقد فوجئ هذا المهندس المصري باعتقاله في يونية عام ١٩٨٩م مع أربعة آخرين بتهمة التجسس، كما ألقي القبض على زوجته، وهُدِّدت بالاعتداء عليها في حال رفضها الإدلاء بشهادتها ضد زوجها، كما استولى الأمريكيون على المكتبة الخاصة بالعالم المصري ثمرة كفاحه في تخصصه، وحكمت عليه المحكمة بالسجن ٤٥ أسبوعًا؛ بتهمة تصدير مواد محظورة تتعلق بصناعة الصواريخ بدون إذن السلطات الأمريكية.

العباقرة والإبداع

ما العبقرية؟ العبقرية كما يراها «دين كينيث سايمنتن» مصطلح ينضوي تحت لوائه مصطلحان آخران، هما: الإبداع والقيادة، وهنا لا يوجه المؤلف اهتمامه إلى المستويات المختلفة من الإبداع والقيادة، أي: المستويات المنخفضة والمتوسطة والمرتفعة، بل يقوم بالتركيز على المستوى المرتفع فقط من الإبداع، وعلى المستوى المرتفع فقط من القيادة، ويطلق على هذين المستويين اسمًا عامًّا شاملًا هو العبقرية، ويرى المؤلف أن تعريف العبقرية من خلال الشهرة أو النبوغ؛ لا يقدم أيَّ تمييز جادٍّ أو عميق بين الإبداع والقيادة.

فالإبداع الفائق والقيادة البارزة يمثلان في نظره المظهرين الأساسيين للعبقرية عبر التاريخ، وهنا يؤكد «دين كينيث» أنه عندما نُخضِع أبرز المبدعين والقادة للفحص العلمي، فإن التمييزات الخاصة بين الإبداع والقيادة ستختفي؛ حيث سيصبح الإبداع شكلًا من أشكال القيادة، وتصبح القيادة مجالًا من مجالات الإبداع.

إننا إذا طبَّقنا هذه النظرية على العالم مشرفة نجدها تنطبق عليه، ويتحقق هذا المفهوم من خلال مسيرة حياته ومشواره العلمي بكل بوضوح، ورغم أن مصطلح العبقرية كثيرًا ما يُستخدم باعتباره مرادفًا لمصطلح الموهبة، فإن العبقرية تتضمن دلالات ومعانٍ خاصةً بالندرة الاستثنائية، وكذلك الإنجاز العقلي المبكر.

أما الموهبة – خاصة عندما تستخدم في سياقات أكاديمية ودراسية – فإن تحديدها لا يكون بنفس الصرامة، ومع ذلك فإن هناك تأكيداتٍ خاصةً لدى

بعض الباحثين على ضرورة التمييز بين الموهبة والإبداع؛ باعتبار أن الموهبة تتعلق بنشاطات الأطفال، أما الإبداع فيتعلق أكثر بنشاطات الكبار، ومِن ثَمَّ لا تقتصر صفة الإنجاز العقلي المبكر على مفهوم العبقرية فقط، بل تمتد لتشمل مفهوم الموهبة أيضًا، ويعرف ألبرت تعريفًا يقوم على أساس الإنتاج، فيقول: إن العبقري شخص يقوم بالإنتاج عبر مدًى طويلٍ من الزمن لعدد كبير من الأعمال، التي يكون لها تأثيرها الواضح والكبير على الآخرين لسنوات عديدة.

إذا نظرنا إلى تعريف ألبرت؛ من حيث تعريف العبقرية عن طريق الإنتاج عبر مدًى طويل نجده ربما يصدق على حالات، ولكنه في حالات أخرى لا يصدق؛ فمثلًا: إذا نظرنا للدكتور مشرفة؛ فهو لم يطل به المقام في الحياة، ولكنه قدم إنجازات كثيرة، فهل يخرج من تصنيف العباقرة؟

إنني أختلف مع ألبرت في هذه النقطة؛ فالمهم تحقيق صفة العبقرية من خلال هذا الإنتاج قلَّ أو كثر، طالت الفترة الزمنية أو قصرت، المهم في النهاية أنه يوجد لدينا إنتاج معين له صفات تميزه عن غيره من الإنتاج؛ مما يجعلنا نصف صاحب هذا الإنتاج بالعبقرية.

كيف يبدع العباقرة؟

كيف تتفتق أذهانهم عن هذه الأفكار المبتكرة؟

هل هناك صفات مشتركة بين مخ العباقرة حتى لو اختلف مجال تألُّقِهِمْ وإبداعهم؟

السؤال بصيغة أخرى: ما القاسم المشترك في أسلوب التفكير عند كلٍّ من: أينشتين ودافنشي وبيكاسو وجاليليو وموتسارت وفرويد وشكسبير وفيرجينيا وولف وغيرهم؟

هل يمكن أن نطبق مثل هذه الأساليب والاستراتيجيات ونتعلمها ونعلمها؛ كي نصبح أكثر عبقرية وإبداعًا؟

جميع هذه الموضوعات تناولها د. عبد الهادي مصباح في كتابه: «العبقرية والذكاء والإبداع» سلسلة الجينات والسلوكيات وتميز الكتاب بثراء معلوماته المبسطة، بالإضافة إلى توفُّر مصادر عديدة ومتنوعة في نهاية الكتاب، تحوي عناوين كتب وموسوعات ومواقع علمية إلكترونية تتناول موضوعات الذكاء والإبداع، وعناوين مواقع تضم جميع مؤلفات وأبحاث العالم الأنثروبولوجي «هوارد جاردنر»، ونقدم هنا موجزًا عن بغض الدراسات والأبحاث حول مخ العالم ألبرت أينشتين، وهي دراسة «هوارد جاردنر» حول العقول الفائقة، وأسرار عبقرية ويليام شكسبير اللغوية، والأمور المشتركة في نشأة وبيئة العباقرة، سواء اتفقت أو اختلفت، ومع نتائج هذه الدراسات إلا أنها تؤكد أن غيرنا يستغل وقته، ويوظف جهده في اكتشاف الكثير من الأمور، بينما نحن نستغل وقتنا في أمور أخرى لا علاقة لها بالعلم.

صفات مشتركة بين العباقرة والمبدعين

بدأت الدراسات الإحصائية والتحليلية التي تتناول نشأة وبيئة العباقرة منذ عام ١٩٠٤م؛ لمعرفة أسرار العبقرية، وكان مِن نتائجها أن معظم العباقرة وُلِدوا لآباء تجاوزت أعمارهم الثلاثين عامًا، بينما الأمهات دون سن

الخامسة والعشرين، وأنهم - في معظم الأحيان - تكون صحتهم معتلة أثناء طفولتهم، إلا أن باحثين آخرين لاحظوا أن كثيرين منهم كانوا أُناسًا عاديين، مثل: ديكارت وجاليليو ونيوتن، وأثبتت بعض الإحصاءات أن بعضهم كان يتيم الأب، مثل: تشارلز ديكينز، والبعض الآخر يتيم الأم، مثل: ماري كوري وداروين، ولم يؤثر هذا الغياب وهذه الظروف على عبقريتهم، أما الخصائص المميزة للعبقري - كما خلصت لها الدراسات والأبحاث - هي أنهم يعرفون كيف يفكرون، وليس فقط أنهم يعرفون فيم يفكرون، بالإضافة إلى الإنتاجية الهائلة؛ فالعباقرة يتميزون بغزارة إنتاجهم وضخامته، فقد أنتج الموسيقار «موتسارت» أكثر من ٦٠٠ قطعة موسيقية، وأنجز بيكاسو أكثر من ١٢٠ ألف عمل فني في حياته! أما المسودات العديدة التي كتبها ت. س. إليوت لقصيدته الشعرية؛ فتحتوي على مجموعة من الفقرات السيئة والجيدة، التي تحولت في نهاية الأمر إلى تحفة أدبية رفيعة.

بقي أن نذكر أن أينشتين سُئِل ذات مرة عن الفرق بينه وبين الإنسان العادي، فقال: الإنسان العادي إذا طلبت منه أن يبحث عن إبرة في كومة قش، فإنه بمجرد أن يعثر على الإبرة، فسوف يتوقف عن البحث فورًا، أما أنا فسوف أستمر في التنقيب في كومة القش بحثًا عن احتمال وجود إبر أخرى. وقال أديسون: إن العبقرية مكونة من ١٪ إلهام، ٩٩٪ عرق!

الروح الداخلية

أحيانًا تنظر لإنسان حي وتحس أنه بلا روح، وأحيانًا تتحدث عن إنسان رحل عن عالمنا كما لو كان حيًّا، هذا ما تشعر به عندما تقرأ سيرة العالم مشرفة

وحياته وروحه وسعيه الدائب، أحيانًا يحس الإنسان أن الحياة ليست مجرد الحركة؛ فأوراق الشجرة تتحرك في اتجاه الريح، ولكنها تفعل ذلك بشكل لا تدخل لإرادتها فيه، تمامًا مثل ورقة تحملها الأمواج وتهوي بها؛ فلا الورقة مسؤولة عن ارتفاعها حين ترتفع، ولا عن هبوطها حين تهبط.

وبغير الروح الداخلية لا تتحرك الأشياء حركة سوى حركة لا إرادية تخضع فيها للقوى الخارجية، والمعروف أن البناء الاجتماعي لا يقوم على الفن والعلم والعقل فقط، إنما يحتاج قبل هذا كله للروح؛ لأن الروح وحدها هي التي تتيح للبشرية أن تتقدم وتنهض، فإذا ضاعت الروح سقطت الحضارة وانحطت، مثلما يَهْوِي مَنْ فقد القدرة على الصعود، ويستسلم لجاذبية الأرض. يقول المفكر الإسلامي مالك بن نبي: عندما تَكُفُّ الرياح التي منحت مجتمعًا ما عن الهبوب، عندما تكفُّ الرياح التي منحته الدفعة الأولى عن تحريكه، تكون نهاية دورته وهجرة حضارته؛ وبذلك تصير الأرض بقعة مهجورة، وفي البقعة المهجورة يفقد العلم كل معناه، فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، وحين يفقد الإنسان قوة إيمانه وتوحيده يفقد تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل.

يعتقد مالك بن نبي أن العقل المسلم يتراجع؛ لأن آثاره تتبدد وسط جوٍّ متخلف لا يستطيع أن يفهمه، فإذا فهمه لم يستطع استخدامه، ومن هذا الوجه جاءت أفكار ابن خلدون إما مبكرة عن أوانها أو متخلفة عن زمانها، فلم تستطع أن تنطبع في العبقرية الإسلامية التي فقدت مرونتها الخاصة، وقدرتها على التجدد والتقدم.

"إن الحكومة التي تهمل دراسة الذرة إنما
تهمل الدفاع عن وطنها"

د. مشرفة

مشرفة والنشأة

طفولة رغدة

تفوح رائحة أشجار الجوافة من كل مكان؛ فتشعر بنوعٍ من الخدر اللذيذ الذي يُعَمِّقُ وشائج الصلة بينك وبين تلك البقعة من الأرض، في مدينة من أجمل مدن مصر وبقاعها، وعلى امتداد سواحلها الطويلة المطلة على نهر من أعظم أنهار الدنيا؛ نهر النيل العظيم، ووعد بأنه من أنهار الجنة.

مدينة تحمل طابعًا تاريخيًا عميقًا ضاربَ الجذور في أعماق الأرض، هذه البقعة التي شهدت مولد حضارات قديمة امتد أثرها حتى أيامنا هذه، وشاهدناها ولمسناها بأيدينا؛ لنتحسس ملامحها وتحفرها الأنامل في الذاكرة رغم مرور قرون وقرون، بطول هذه السواحل المطلة على البحر المتوسط والنسيم العليل الذي يهب عليها من كل جانب، والطقس المعتدل طوال أيام السنة، فتأثر شعب وساكني تلك المدينة بكل هذا الجمال والنماء، فانعكست تلك الصفات على سكان مدينة دمياط؛ فتجدهم يتميزون بالهدوء، وفي نفس الوقت بالنشاط والحيوية، فهم شعب لا يعرف إلا الجدية وإتقان العمل، يميزهم ذلك المزاج الهادئ في العمل وغزارة الإنتاج الذي لا تجده في أي مكان آخر، وكأنهم رفعوا شعار الهدوء والسكينة من أجل العمل والتفوق.

من خلال عبارات العالم مشرفة؛ والتي تطالعنا عبر صفحات هذا الكتاب، نجد أننا نستطيع أن نغوص في شخصية هذا الراحل العظيم، وأن نسبر أغوار هذه الشخصية. لقد قال عنه مصطفى أمين: عرفته سياسيًّا وشاعرًا وفيلسوفًا

وأديبًا قبل أن أعرفه عالمًا، كنت أحس معه أنني في حضرة دائرة معارف من عدة أجزاء؛ كل جزء متخصص في فن من الفنون، أو علم من العلوم. ولكن مَن نحن حتى نفعل ذلك؟!

وقال عنه د. محمد فوزي حسين: إننا مهما اقتربنا فلن نكون إلا كالصياد الواقف على شاطئ المحيط، وبيده شبكة صغيرة يصطاد بها بعض السمك؛ لأن الإنسان العظيم كالمحيط الواسع؛ في أي ناحية تنظر إليه تراه يعانق السماء، ولأنك في كل ناحية ترسل نظرك فيها تجد جمالًا أو فضلًا، وتقتنع فورًا بأن العين لم تُحِط بعد بكل الجمال الذي احتواه، فأي عظيم كان؟! لقد كان ابن حي المظلوم بمدينة دمياط، وابن مصر العظيمة، فهل ظُلِمَ مشرفة؟! وهل كتبت البداية في حي المظلوم نهايته؟!

دمياط عبر التاريخ

وعلاوة على ذلك؛ فشعب دمياط شعب يتسم بالعراقة والأصالة على مر التاريخ، له بطولات مشرفة ومواقف لا يحيد عنها عبر الأزمان؛ فمثلًا: كفر البطيخ مدينة صغيرة تابعة لمحافظة دمياط، ويرجع تاريخها إلى ما قبل الغزو الصليبي.

ففي العصر الفرعوني كان الوجه البحري مقسَّمًا لعشرين مقاطعة، وكانت دمياط المقاطعة السابعة عشرة، وكان المصري القديم يطلق عليها: تامحيت، وفي العصر الإغريقي زادت أواصر العلاقة التجارية بين دمياط واليونان، وقدم عدد كبير من العلماء والكتاب والسائحين، وكانت تسمى: تامياتس، أما في العصر الروماني والبيزنطي فاتخذوا من هذه البلدة حقلًا يمدهم بالبذور

والكتان وسائر الحاصلات الزراعية، وقامت منها الثورات ضد الرومان؛ لِمَا فرضوه على الشعب من ضرائب، وفي إحدى الحملات الصليبية وصل الفرنجة دمياط وحاصروها برًّا وبحرًا، ولكن صمد الشعب الباسل، وتفشى المرض بين جنود الأعداء حتى اضطروا إلى الرحيل.

في حملة صليبية أخرى تصدى الشعب وحقق الخلاص بعد ستة عشر شهرًا، وعندما عاود الصليبيون الهجوم بحملة كبيرة ضرب شعب دمياط أروع مثل في البطولة والتضحية؛ حيث توالت هزائم الفرنجة، وأُسِر لويس التاسع في دار ابن لقمان بدمياط، وتم إطلاق سراحه بمبلغ أربعمائة ألف جنيه فرنسيٍّ، مقابل الجلاء عن دمياط.

وبين مجمع البحرين؛ حيث الماء العذب والملح الأجاج، كان مولد عالمنا العظيم علي مصطفى مشرفة، على أرض مزارع الجوافة؛ حيث تفوح رائحتها العذبة في كل مكان، والتي لا تخطئها الأنوف، كان ابنها منذ البداية متميزًا، لا يمكن للعين التي تراه أن تتغافل أو تغفل عنه، هنا على أرض النخيل الذي يربو عدده على مليون ومائتي ألف نخلة، تلك الأرض التي قاومت الصليبيين كانت مسرحًا لنمو عالم من أهم سبعة علماء في العالم بأسره، ووسط هذا الخضم الهائل من الثراء والتنوع والعمل الدائب، ولد علي مصطفى مشرفة في الحادي عشر من شهر يولية عام ١٨٩٨م.

وكما منحه الله أن يكون ابنًا لذلك الثراء والتنوع في الطبيعة، اختصه تعالى بمنزل كريم شبَّ على أرضه يسمع أحاديث العلم، ويتلقى دروسًا في الدين

وأمور الدنيا، يستيقظ الصغير علي في الصباح الباكر؛ ليجد والده الشيخ الجليل مصطفى عطية مشرفة قائمًا يصلي فرضه ممسكًا بكتاب الله، فاعتادت أذناه سماع القرآن الكريم وألفته، فرسخ في قلبه وتدبر معانيه، وبعد العشاء يجد جموع الناس في البلدة يتوافدون على منزله؛ فهذا يسأل في أمور الدين، وذاك يسأل في أمور الدنيا، ووالده يجيب في كل منهما بهدوء وسكينة وابتسامة مشرقة لا تفارق شفتيه ووجهه الوضاء؛ ففهم علي منذ الصغر أن أمور الدين لا تنفصل عن أمور الدنيا، والعكس صحيح؛ فكل منهما مرتبط بالآخر، فكان يجلس يسمع ويفهم ويعي كل ما يقال من أول وهلة، وكان الناس يتوافدون على الشيخ؛ ليتعرفوا منه ما تعلم عن جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده؛ فهو من مدرستهما، وأحب علي الصغير هذه الحكايات، وكان يبدي رأيه في كثير من القضايا، فيؤيد ويعارض بعضها، وشجع هذا الاستعداد الفطري والده – برغم المسؤوليات الكثيرة – أن يمنحه الوقت والجهد؛ ليتعلم على يديه العلوم المختلفة، وكثيرًا ما أهداه والده كتبًا في العلوم تشرح له بطريقة مبسطة وسهلة ما غُمَّ عليه من الأمور؛ فنشأ علي على حب العلوم لحد كبير حتى هام بها عشقًا، وكانت سعادة والده لا تدانيها سعادة عندما رأى تقدم ابنه الأكبر يومًا بعد يوم في العلوم المختلفة، علاوة على حفظه للقرآن وللكثير من الأحاديث النبوية الصحيحة.

فُطِرَ علي الصغير على الإحساس بالجمال الموجود في الطبيعة والكون، ولم يقف عند هذا، فمَن يعشق الجمال لا يغفل الموسيقى؛ ففي الكون موسيقى

تواؤمية طبيعية، ينسجم فيها هدير الماء في السواقي وهديل الحمام وزقزقة العصافير وشقشقة النهار العذب؛ لتنسج مع أشعة الشمس لحنًا من أجمل الألحان، فأحب علي عزف الكمان والبيانو.

كان علي مُولَعًا بموسيقى «جلبرت» و «سلفن»، ولم يكن مجرد متذوقٍ للموسيقى، أوعازفٍ بارعٍ للكمان والبيانو - فحسب - بل إنه فكَّر في شيء لم يسبقه إليه غيره؛ ففي عام ١٩٤٥م ألف (الجمعية المصرية) التي تمنع استخدام النغمات العربية دون الإشارة لذلك؛ فتحفظ بذلك حقوق المؤلفين، وكان من أهم أهدافها: تيسير كل ما صعب على التأليف الحديث؛ فتذلل العقبات وتفتح الطريق أمام المؤلفين، فبذلك يفتح بابًا جديدًا لعقول مبتكرة أن تتواجد بدلًا من قولبتها في قوالب جامدة لا تفتح الباب أمام الابتكار والإبداع وظهور المبدعين.

وفي فترة من الفترات لاحظ زملاؤه أنه يعاني من التوتر والقلق، وكان هذا حاله إذا ما أهمته مشكلة أو قضية، فسأله أحدهم: مشرفة، ما الذي يهمك ويشغلك هذه الأيام يا عزيزي؟

قال له: لقد بت مهمومًا بموضوع في منتهى الخطورة والأهمية، إذا وفقت فيه سأفتح بابًا جديدًا للتأليف والاقتباس. ازداد صديقه شغفًا، وقال له: وما هو يا ترى؟ ليتك لا تسويني على نار هادئة. ضحك وقال له: إني أقوم حاليًّا بالانتهاء من تشكيل لجنة لترجمة الأوبريتات الأجنبية؛ لتحويلها إلى اللغة العربية.

هتف صديقه وقال له: إنه إنجاز بكل المقاييس لا يقوم به سواك يا مشرفة. وذات يوم دخل صديقه يحمل نسخة من كتاب لمشرَّفة عن الموسيقى، وهو

يقول له: ما هذا الذي فعلت يا صديقي؟ إن الموسيقيين ثائرون عليك جدًّا، ويقولون إنك في كتابك هذا ترى أنه يجب إلغاء جميع النغمات الموسيقية في السلم الموسيقي ما عدا السيكا والعراق!

ضحك مشرفة، وقال له بهدوء: وما العجب في ذلك؟! هذا مجرد رأي، وليكن في حسبانك، أنا لم أقل إنه يجب إلغاء بقية النغمات في السلم الموسيقي، ولكن قلت: أرى، وشتان بين ما يجب وما أرى.

ردَّ صديقه: ولكنك قلت إنك توصلت لذلك، والبعض يرى في ذلك تعدِّيًا وجورًا منك على الموسيقى والموسيقيين. أجاب: مجرد وجهة نظر، مَن أراد أخذ بها، ومن لم يرد فله مطلق الحرية يا عزيزي!

وهكذا منحته الموسيقى حسًّا مرهفًا؛ فأحب مَن حوله وأحبه الآخرون، وكان نصيرًا للضعفاء والمساكين، يقف بجوارهم منذ صغر سنه، برغم أنه عاش حياة تمتع فيها بقدر من الرفاهية المادية؛ فأسرته تتمتع بالثراء الذي يسمح له أن يعيش عيشة رغدة كريمة، ينهل من كل شيء؛ فتمتع بالسطوة المادية والمركز الاجتماعي المرموق في ظل أسرته الكريمة.

وشهد عام ١٩٠١م حدثًا مهمًّا بالنسبة لمشرفة؛ فقد التحق بالمدرسة الابتدائية، كان ينتظر التحاقه بالمدرسة على شوق، فقد أعده والده الشيخ إعدادًا ممتازًا، ومنذ اليوم الأول تميز مشرفة في مدرسته، وأحب دراسته ومدرسيه حبًّا جمًّا، ولم ينته عام ١٩٠٧م إلا بحصوله على الشهادة الابتدائية، بل كانت النتيجة مُشَرِّفَةً للغاية؛ فكان ترتيبه الأول على القطر، وكانت فرحة والده بنجاحه عظيمة، ولأن الحياة لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة؛ فقد غيرت الأيام نغمة الفرح والسعادة واليسر والسهولة.

نغمة مختلفة

نعم.. من غير الطبيعي أن تظل الأيـام هانئـة سـعيدة سـهلة؛ فقـد تبـدلت الأحوال وشاءت المقادير أن يرحل الشيخ الجليل والد علي مصطفى مشرفة إثر أزمة مالية كبيرة حلت به سنة ١٩٠٧م، وهي أزمة من أزمات القطن الـشهيرة التي تهز الاقتصاد المصري، فتهوي بالأغنياء إلى قاع الفقر.

إن المحنة التي نزلت بأسرة مشرفة من جراء شدة تلك الأزمـة التـي أودت بمائتي فدان كان الوالد يمتلكها، أطاحت الأزمة بكل ما تملكه الأسرة؛ ليواجه الحياة القاسية وحده دون الأب الذي عوده أن يقف بجواره، وتلقى على يديـه أمور الدين والدنيا، وربما ذلك لحكمة إلهية تعده لرسالة أكبر في الحياة، فأصبح الأخ الأكبر مسؤولًا عـن أسرة بأكملهـا، واضـطر مـشرفة لأن يـترك دميـاط ويعيش في القاهرة، فسكن هو وإخوته بحي عابدين، ويبدو أن مشرفة تـشرب من أرضه، فكما تنبت ثمار الجوافة؛ لتتواءم مع مختلف الظروف المناخية استطاع مشرفة أن يكون مثلها، فله القدرة عـلى عمـل جـذور عرضـية: منهـا مـا هـو مكتسب، والآخر استطاع بقدرته اكتسابه من مختلف البيئات من حوله؛ لتعينه على أن يمضي في الحياة رغم صعوبتها وقسوتها.

كانت كلمات الشيخ مـصطفى عطيـة مـشرفة تطـن في أذنيـه دائـمًا: عـلي.. لا تنسَ ما حفظت من القرآن الكريم، عـليُّ.. راجـع الأحاديـث الـصحيحة، وإياك يا بنـي أن تفـرط في علمـك.. عـليُّ.. أمـك وإخوتـك أمانـة في عنقـك لا تفرط فيها، وإياك يا علي أن تفرط في علمك، ولا تخن يا بني.. فمن يخنْ يخنْ نفسه أولًا.

أصبح صوت الشيخ ودروسه جزءًا لا يتجزأ من حياته؛ فأعانته على كثير من المشكلات التي تواجهه، وهو الصبي الذي لم يكمل اثني عشر ربيعًا، حتى صار مسؤولًا عن أم وأربعة من الإخوة هو أكبرهم.

بدأ عليٌّ مشوار الكفاح، فاعتاد الصبر والجلد والمثابرة، حتى أصبحت تجري مجرى الدم في عروقه، وشعر جميع مَن حوله أن الحس التربوي ينمو لديه يومًا بعد يوم؛ فلقد تلقى دروسًا عملية في التربية منذ وقت مبكر، وذلك من خلال إعالته لأسرة قد يميل كاهل عائل الأسر الكبير أمامها، ولكنه استطاع في سن مبكرة أن يستوعب دروسًا من والده الشيخ؛ والتي أعانته في رحلته المبكرة في الحياة، وظل بعد موت أبيه يوصي إخوته بالصلاة والالتزام بالخلق القويم.

إن ذكاء مشرفة المبكر جعله طورًا يتقمص شخصية الأب؛ فيكون الناصح الأمين العطوف المسؤول عن إخوته، وتارة أخرى يتقمص دورًا كواحد من الإخوة؛ حتى لا يشعروا أنه بعيد عنهم، وكان لأمه بمثابة الزوج المعين الذي فقدته في أول الطريق مع أبنائها، وأحيانًا أخرى عندما يشعر بالتعب والإرهاق فإنه يعيش دوره الحقيقي كابن؛ فيضع رأسه على صدر أمه؛ ليرتوي من عطفها وحنانها، وفي كثير من الأوقات يتوسد ركبتيها لتعبث له بشعره؛ لينطلق بخياله الطفولي الذي حرمه منه القدر أن ينعم به، فقد شب رجلًا قبل الأوان، وعندما كان يهفو قلبه للعبة يلعبها كالأطفال، كانت والدته تقول له: إن اللعب مضيعة للوقت يا علي، ركز في دروسك أفضل.

وكانت أمه بجواره تساعده وتشد من أزره دائمًا، وتحاول أن تعوضه عن والده الذي لم يكن له بمثابة الوالد فقط، وإنما كان الأب والصديق والمعلم

ورفيق الدرب، وبرغم أنه رحل عنه مبكرًا فإنه أثر فيه أبلغ الأثر؛ فطفولة علي مصطفى مشرفة خلت من كل شيء بهيج؛ فلا يذكر أنه لعب كالأطفال مرة واحدة، فهو لم يشاركهم، وفي نفس الوقت لم يتأثر وهو يراهم يلعبون الكرة في حارات وشوارع دمياط؛ فقد كان حلمه أن يكون دائمًا الأول، فكانت أمه تسانده وتشد من أزره، ولم تنسَ الأم العظيمة أن تهديه مصحفًا أوصته ألا يفارقه أبدًا؛ ليحفظه من كل سوء، وقد حفظ علي وصية أمه، فلم يكن يسافر بدونه، وكان يصحبه في رحلاته داخل البلاد وخارجها، ويقرأ فيه عندما يشعر أنه يحتاج للتسرية عن نفسه، وكان يخصص كل يوم وقتًا لقراءة القرآن، وما غمض من معانيه كلما تيسر له.

وبدأ علي ينخرط في الحياة، ويعود نفسه أن يستلهم من روح والده العزم؛ ليكمل مسيرته، ولكن يبدو أن الأيام غارت منه؛ لأنه بدأ يتصالح معها، ويتكيف مع الظروف الجديدة بالرغم من قسوتها، وأبت إلا أن تدق المخاطر على رأسه من جديد، وها هو الفأس يهبط على رأسه فجأة، وكأنه صراع شرس مع وحش ضارٍ يأبي أن يتركه قويًا، وها هو الموت يخطف أعز إنسان لديه؛ أمه المعين له على شدائد الحياة وصعوبتها، وكأن القدر يضعه في سلسلة من الاختبارات اللانهائية؛ فقد كان ذلك قبل امتحان البكالوريا بشهرين، وكانت الفاجعة كبيرة والحمل المعلق في رقبته أكبر، وكأن الأحمال تزيد من وزنها على رقبته؛ لتجره لهاوية سحيقة، ولكنه يتصارع معها، ويأبى على نفسه، ويرتفع على كل الظروف الصعبة، ويتحدى الموت بالنجاح والتفوق؛ فيكون من أوائل الدفعة في بكالوريا المعلمين، وحصل على المركز الثاني على القطر المصري عام ١٩١٤م.

كانت هذه المرة الأولى في حياة مشرفة التي لم يفز فيها بلقب الأول؛ نتيجة لظروف موت والدته فكان الثاني، وكان لهذا التفوق أثره في حبه لمدرسيه وحبهم له، فقد ربطته علاقة قوية بمدرسيه؛ لعلمه وتفوقه إلا أن نباهته ولغته القوية التي اكتسبها من حفظه للقرآن والأحاديث لفتت نظر مدرس اللغة العربية إليه؛ فزاد ذلك من أواصر العلاقة بينهما، حتى إن مدرسه لم يكن يناديه: علي، وإنما كان يطلق عليه: الأستاذ، حتى إن الجميع صاروا ينادونه بهذا اللقب. ولقد بدأ مشرفة حياته العلمية مبكرًا؛ حتى إنه كان ينشر مقالات علمية في دوريات متخصصة، وهو لم يتجاوز سن الخامسة عشرة من عمره.

كان حلم مشرفة أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا بالرغم من حصوله على مجموعٍ عالٍ، وتحقق له ما أراد، وأهم ما كان يميز مشرفة طوال سنوات الدراسة الاجتهاد والتفوق، وفي عام ١٩٢٧م عندما أنهى دراسته بمدرسة المعلمين، حدثت مفاجأةٌ غيّرت مجرى حياته تمامًا؛ فقد تنبأ له معلمه بلقب الأستاذ الذي حصل عليه وهو في سن السابعة والعشرين من عمره؛ ليكون أصغر أستاذ في الجامعة بكلية العلوم.

صداقة في الفقر والغنى

يقول الأستاذ الصحفي الكبير مصطفى أمين في مقدمته لكتاب عن مشرفة بعنوان «مشرفة بين الذرة والذروة» للدكتور محمد الجوادي: شعرت بسعادة غامرة لصدور هذا الكتاب؛ فلقد كان الدكتور علي مصطفى مشرفة صديقًا لأبي في مدينة دمياط التي جمعت بينهما؛ حيث إنهما من بلدة واحدة.

كما أن صداقة والديهما وطدت هذه الصداقة، فلقد كان الشيخ مصطفى مشرفة من أثرياء دمياط، ثم فقد ثروته كلها في مضاربات القطن سنة ١٩٠٧م،

وكان الشيخ أمين أبو يوسف أكبر محامٍ في دمياط، ثم مات هو الآخر ولا يملك مليمًا واحدًا.

وأرى أنه من الجميل أن تتناغم الصداقة، وتعزف على وتر واحد هو الإخلاص في كل شيء؛ حتى في الفقر والغنى، فكأن كلًّا منهما يشعر بالآخر، ويأبى أن يسبقه إلى شيء قبل أن يلتقوا على هذا الشيء أيًّا كان.

فثبات الأحوال من المحال، وأهم من الفقر والغنى كنز نسعى إليه طوال حياتنا، ربما نبلغه وربما لا يبلغنا الأمل بما نتمنى.. هذا الكنز هو الصداقة؛ سواء في الفقر أو في الغنى، فالصداقة لا يتغير معدنها النفيس إن كانت خالصة لوجه الله، فهي صداقة للصداقة، وقد عاش د. مشرفة غنيًّا في كل نواحي حياته؛ كان غنيًّا عن المال لا غنيًّا بالمال، فلم يطمع في جاهٍ أو سلطان، وإنما كان يتطلع دائمًا لمستقبل مشرق زاهر لبلاده يجعله أغنى بلد في العالم، من حيث العلم والمعرفة، ويتحلى بتاج الأخلاق.

المفاجأة

عندما يخلص الإنسان النية مع نفسه وعمله لابد أن يكافئه الله؛ لذلك كانت مفاجأة رائعةً توَّجت عمل مشرفة طوال سنوات دراسته، عندما اختير مشرفة لبعثة علمية إلى لندن، وعلى قدر فرحته واهتمامه أن يكمل تعليمه في الخارج إلا أن هناك مشكلة كانت تؤرقه ليل نهار؛ تلك المشكلة هي إخوته الذين ما زالوا في طور التعليم، وأخته الكبرى نفيسة التي لم تتزوج بعد، وإخوته الذكور؛ مصطفى الذي أصبح أستاذًا للغة الإنجليزية بآداب القاهرة، والدكتور عطية الذي أصبح مديرًا لمكتبة جامعة القاهرة، واللواء حسن مشرفة

الذي أصبح مديرًا للمرور، كانت هذه المنغصات تؤرِّقه وتشغل باله ليل نهار، وتواردت الأفكار على رأسه؛ كيف يتركهم بمفردهم؟ وكيف سيواجهون الحياة؟ وكيف سيدرسون؟... مئات الأسئلة تواردت على ذهنه، كان عليه أن يطمئن عليهم في الحياة.

وكأن القدر يقف بجواره؛ فقد تزوجت أخته نفيسة من محمد بك الجندي، وكان هذا الحدث بمثابة البلسم الشافي لجراحه التي لم تندمل منذ فقد أبيه وأمه، كما أراحه من عناء التفكير؛ إذ كيف يسافر ويترك أخته دون أن يطمئن على مستقبلها؟! أما إخوته الذين ما زالوا يدرسون فقد فكر في حل عملي لهم؛ وهو إلحاقهم بمدارس داخلية؛ حتى يكونوا في مأمن عن المشاكل، ويستطيعوا التركيز في دراستهم، واتفق مع أخته نفيسة أن تزورهم من حين لآخر، وتطمئن على أحوالهم الدراسية، وتكون إلى جانبهم، ووافقت الأخت بالطبع وسارت الأمور على ما يرام كما يأمل مشرفة، وكان مشهد الوداع عند سفره مؤثرًا للغاية؛ فهذه أول مرة يفارق فيها مشرفة بيته وإخوته.

أثر فيه أن يرى البيت الذي جمعهم والذي شهد أمسياتهم وفرحهم وحزنهم يخلو منهم جميعًا، كان كل جدار ينطق ويتأوه لفراق أهل البيت، ولكن (ما باليد حيلة)، أما إخوته فظلوا يبكون رغم توصيته لهم بالتماسك، ولكنها مشاعر ولدت معهم، فقد كان أبوهم الشيخ غض المشاعر، وتمتعت أمهم بالحنان الفياض الذي شاء القدر أن يحرموا منه مبكرًا، ولم ينسَ مشرفة عند مغادرته أن يحمل المصحف الذي أهدته إليه أمه؛ ليحفظه من كل سوء، وحتى اللحظة الأخيرة وهو يعانقهم ويشد على أيديهم همس في أذن كل منهم: حافظ على صلاتك دائمًا، ولا تتركها لأي سبب من الأسباب، واعمل وإخوانك للإسلام.

وأصبح مشرفة وفي يده سلاح من أقوى الأسلحة وأقدرها على فتح أبواب الوظائف الحكومية المرموقة، غير أنه لم يفتح بذلك السلاح بابًا من الأبواب الحكومية، ولا باب كلية الطب التي كانت في ذلك الوقت وحتى وقتنا الحالي تهوى الأوائل.

أما مشرفة فقد آثر أن يكون له وجهة نظر مختلفة؛ لأن طموحه مختلف وعقليته متفردة ومختلفة عن أبناء جيله، كما أن بداخله طموحات لا يستطيع تحقيقها من خلال كلية الطب، وتأججت ثورة مصر في عام ١٩١٩م ضد المستعمر الإنجليزي، وكان مشرفة في ذلك الوقت يدرس في إنجلترا، وأحس مشرفة بصعوبة الموقف؛ فهو يدرس في بلد أعدائه، وكان إذا استعصى عليه أمر من الأمور كتب إلى أخيه مصطفى وأرسل إليه خطابًا يستشيره في العودة، ولكنه قال له: أني أرى يا أخي أن تبقى كما أنت في مكانك حتى تكمل دراستك.

وحدث بعد ذلك أن تعرض مصطفى للسجن مع آلاف الذين اشتركوا في الثورة؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يكتموا مشاعرهم المتأججة من أجل مصر، وعلم مشرفة بذلك وهو في لندن، فكتب إليه يعلن للجميع بأنه فخور بأخيه مصطفى، الذي حمل نيابة عنه وعن باقي أفراد الأسرة هذا العبء؛ فكانت دماء الوطنية تجري في عروقهم جميعًا فهم أبناء مصر بحق.

نوتنجهام وأسطورة اللص الشريف (روبن هود)

حلم يراود مشرفة، كلما ذُكِرَتْ جامعة نوتنجهام يقفز إلى ذهنه مباشرة أسطورة روبن هود، التي يعرفها الجميع بـ «أسطورة اللص الشريف»، وسافر

علي مصطفى مشرفة إلى لندن والتحق بجامعة نوتنجهام، وكانت فرحته لا توصف بالتحاقه بتلك الجامعة العظيمة، ونوتنجهام تقع في إيست ميدلاندز في الشمال، بالقرب من بيرمينجهام؛ وهي مدينة خلابة تحتفي بالثقافة والمثقفين، وتبعد نصف ساعة فقط عن لندن، وعندما دلف مشرفة إلى المدينة، وقبل أن يصل إلى الحرم الجامعي الذي يبعد عن وسط المدينة بحوالي ثلاثة أميال، هاله ما رأى من المباني القديمة التي تقف في مهابة وقدسية تتعانق مع البنايات الحديثة، وأكثر ما أخذ لبَّه تلك الحدائق والبحيرات الممتدة في انسيابية، أما مُنَاخُ المدينة فيتميز بالجدية، وأما أهل المدينة فالكثير منهم مشترك في الأنشطة والجمعيات، ويزداد النشاط المشترك كلما تفاعل مع الجمعيات المختصة فهي نشطة جدًّا بشكل منقطع النظير، كانت البداية مشجعة، وكل شيء يبعث على الانطلاق بنشاط وحيوية وجدية.

وروبن هود شخصية إنجليزية تمثل فارسًا شجاعًا مهذبًا طائشًا وخارجًا عن القانون، عاش في العصور الوسطى، وكان لديه براعة فائقة في رمي السهام، وقدمت شخصية روبن هود الشخص الذي يقوم بسرقة الأغنياء واللصوص وإعطاء الفقراء والمساكين، ويحارب الظلم والطغيان، وكان يعمل هو ومجموعته المكونة من ١٤٠ رجلًا من «اليومن» أبناء الطبقة المتوسطة، وكانت مجموعته يطلق عليها «ميري من»؛ أي: الرجال المبتهجون في غابات شيروود بالقرب من نوتنجهام، واندمج مشرفة في نوتنجهام، وذاب بين علومها حتى تفوق على أبنائها بالمدارس الداخلية في عام ١٩٢٣م.

وحصل على بكالوريوس العلوم من جامعة نوتنجهام، كما حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة في أقصر مدة تسمح بها قوانين الجامعة.

ولكنَّ نفوذَ المستعمر الإنجليزي في وزارة المعارف المصرية حال بين مشرفة وطموحاته، ولكن مَن يتقِ الله يجعلْ لـه مخرجًـا؛ فقـد قـيض الله لهـذا الرجـل المحب لله ولبلده أحمد طلعت باشا؛ ليكون على رأس وزارة المعـارف، وكانـت تربطه علاقة نسب بـ«مشرفة»، ووافقت الوزارة له على الاستمرار في البعثة.

عاد مشرفة بأمر من الوزارة، وعُيِّنَ مدرسًـا بمدرسـة المعلمـين العليـا، إلا أن حبَّه للعلوم واهتماماته لم تنته، فعاد إلى نوتنجهام مرة أخرى للحصول عـلى الدكتوراه في العلوم عام ١٩٢٥م، وبذلك كان مشرفة أول مصري يحصل على درجة الدكتوراه في العلوم.

وصل مشرفة الليل بالنهار، حتى انتهـى مـن عـرض رسـالته عـلى أسـتاذه ريتشاردسون، ولم تكن جامعة لندن تسمح بدخول الامتحـان إلا بعـد مـرور سنتين على الأقل، ولم يطل بمشرفة الانتظار، فقـد أُعْلِنَـت النتيجـة في مـارس ١٩٢٤م، وليس لنتيجة الامتحان سوى مدلول واحد؛ وهو أن مشرفة أصـبح العالم الحادي عشر في العالم الذي يحصل على الدكتوراه في العلـوم، وأول عـالم مصري يحصل على هذه المكانة الرفيعة.

تقدم د. مشرفة بأوراقه؛ ليصبح أسـتاذًا في كليـة العلـوم، وكـان في الـسابعة والعشرين من عمره، وكان ذلك في عام ١٩٢٥م، وكان أصغر أستاذ في الجامعة، وفي ذلك الوقت كان لا يحصل على هذا اللقب إلا الأسـاتذة الكبـار الـذين نـال الشيب منهم، ولكن رفضت الكلية بحجة أن سنه دون الثلاثين سنة، والثلاثون من شروط الأستاذية في الجامعة المصرية، وتم تعيينه أستاذًا مساعدًا، وفي ذلك الوقت كان ببنجام عميد كلية العلوم أقل درجة منه، فكـان يقـول لـه: كيـف

أكون عميدك وأنت تحمل من الدرجات العلمية ما لا أحمله؟! فكان مشرفة يرد عليه في أسّى ويقول: لأن حكومتي هي التي تريد ذلك.

وعندما تولى د. مشرفة عمادة كلية العلوم جعلها كلية عالمية، واشترط للترقية إلى أستاذ مساعد الحصول على درجة الدكتوراه في العلوم؛ أيْ أنَّ أيَّ أستاذ مساعد بالضرورة ذو مستوًى علمي عالمي، ثم استأنف مشرفة إرسال البعثات العلمية للخارج، وشجع الطلبة من أجل تحصيل العلم والتفوق فيه.

فقد سار الدكتور مشرفة في عمادته للكلية على منهج علمي مدروس، حين كانت الإدارة المصرية تفتقر إلى مثل هذه المنهجية والعلمية في تسيير الأمور، فقد عُرِفَ بالحنْكَةِ والمهارة والخلق المتين والشخصية القوية في الحق، وكان عَزُوفًا عن الصغائر، شديد المحافظة على السمعة العلمية للكلية، فانطلق خطوات شاسعة في البحث العلمي، حتى وضع كلية العلوم على خريطة كليات العالم؛ مما جعل جامعات العالم تقدر شهادتها وتوقر علماءها.

نهض دكتور مشرفة بالارتقاء بالمستوى العلمي للجامعة المصرية، واهتم أن تنافس الجامعة المصرية جامعات العالم، وكان حريصًا أشد الحرص على الاحتفاظ بمستوًى عالٍ من العلم والدرجات العلمية، وألا يلحق بهيئة التدريس مَن هُم دون ذلك المستوى، وكثيرًا ما اصطدم مع زملائه في مجلس الجامعة؛ بسبب تعيين بعض الشخصيات العامة في الوظائف الجامعية.

"إن مبدأ تكافؤ الفرص هو المقياس الدقيق
الذي يرتضيه ضميري"

د. مشرفة

مشرفة

بين المرونة والحنكة الاجتماعية

عندما نَصِف شخصًا بالمرونة فإننا نقصد أنه غير متعنت، ويستطيع أن يُسَيِّرَ الأمور دون تعقيدات لا يتحكم فيه الروتين، وعندما يتسم هذا الشخص المرن بالحنكة؛ فالملعب له هو دون سائر الفريق، فكيف يكون الحال عندما يكون هذا الشخص يتسم بالإبداع والعبقرية!! فالإبداع: إنتاج الجديد النادر المختلف المفيد فكرًا أو عملًا. وهو بذلك يعتمد على الإنجاز الملموس.

العوامل التي تُكوِّن القدرة على التفكير الإبداعي

هناك عوامل متشابكة تُكَوِّنُ القدرة على التفكير الإبداعي، وتؤثر فيه إلى حدٍّ كبير، وصنف ديفيز ١٩٩٦م، القدرات الإبداعية إلى:

- الطلاقة، وتطوير التفسيرات، والقدرة على التنبؤ بالنتائج.
- الإسهاب والحساسية تجاه المشاكل، والتفكير المنطقي، والمرونة، والقدرة على التعرف على المشاكل، والقدرة على التراجع، والأصالة، والتفكير المقارن والمجازي، والتحليل، والتحويل، والتقييم، والتركيب.
- التصور، والتخيل، والحدس، والتركيز.

كل هذه الصفات تنطبق على العبقري د. مشرفة، والمرونة هي إحدى هذه الصفات التي تعامل بها، ومن خلالها أنجز الكثير، ومِمَّا يُذْكَرُ للدُّكتور مشرفة

أنه عندما اشترط للحصول على درجة الدكتوراه في العلوم الترقية إلى لقب أستاذ مساعد، لم يجعل من هذا الشرط عقبةً وسدًّا منيعًا في وجه زملائه؛ فكان يسمح لهم بإجازة لمدة أربعة شهور قبل الإجازة الصيفية؛ كمدة كافية يتقدمون خلالها بأبحاثهم في جامعات أوربًّا للحصول على هذه الدرجة.

علاوة على ذلك كان يرى أن المعيدين هم البذور التي تنميها الجامعة لإنبات أساتذة صالحين؛ فحرص على انتقاء هذه البذور، حتى تخرج للجامعة الثمر الصالح الذي يتسم مذاقه بالنضج والحلاوة والجودة.

ويرى د. محمد الجوادي أن مشرفة بعوده الصلب وشخصيته التي لا تلين في الدفاع عن الرأي السديد، كان سدًّا منيعًا منع كلية العلوم - في كثير من الأحيان - من التأثر بالتيارات الجارفة التي كانت تتلاطم من حولها، وتكاد تعصف بكل شيء.

أما مواقف مشرفة مع أصحاب السلطة والسلطان فهي مشرفة لكل العلماء والجامعيين، فلم يكن مشرفة يخاف لومة لائم، وحدث أن وزارة إسماعيل صدقي باشا منعت طالبًا في كلية العلوم من دخول الكلية، فماذا كان موقف مشرفة؟

إن تصرف مَن يخاف على نفسه ومنصبه أن يبتعد عن المشكلة، ولكن اصطحب مشرفة الطالب في سيارته إلى الكلية.

هذا هو دكتور مشرفة الذي نجده في موقف آخر يرويه دكتور. محمد فوزي حسين، أنه ذات يوم أرسلت حكومة الوفد بطالب تريد إلحاقه بكلية العلوم كاستثناء للقاعدة المتعارف عليها، وخرقًا للشروط الموضوعة؛ فهذا استثناء بكل المقاييس، وهو لا يقبل الاستثناءات.

فماذا كان موقف دكتور مشرفة؟ بالطبع رفض دكتور مشرفة قبول الطالب.. ولكنه بسعة عقله ورجاحته فكر في أن يكون هذا الموقف سبيلًا لمصلحة مَن يستحق المساعدة، أن يكون مصلحة لطلاب آخرين غير قادرين؛ فاشترط أن تدفع الحكومة نفقات تسعة وثلاثين طالبًا كانوا أحق من هذا الطالب بدخول الكلية، ترى، هل وافقت الحكومة لرأي مشرفة؟ وماذا كان تصرفها تجاه هذه الحنكة؟

لم يكن من حكومة الوفد آنذاك إلا أن رضخت أمام مشرفة، ولبَّت طلباته دون قيد أو شرط.

و "لَوْ"

مشرفة رجل اجتماعي بالدرجة الأولى، متواجد في المجتمع بين زملائه، له دور عريض مؤثر، فمِن الغريب على عَالِمٍ أن يتواجد وسط الأدباء والفنانين ويقوم بواجباته الاجتماعية دون نقصان، في وقتنا الحالي الذي يتعلل الابن فيه بعدم قدرته على الوفاء بواجباته لوالديه، نراه بعين أخرى عندما نُقِلَ دكتور طه حسين من الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف، وكان مشرفة من أقطاب الجبهة المعارضة لهذا الاتجاه، ولم يسكت لحظة واحدة أو يتغاضى، مما أغضب لطفي السيد، فترك القاهرة، وذهب ليقيم في حلوان بعيدًا عن الأحداث وعمن بيدهم الأمر؛ حتى لا يراجعوه فيما اتخذه من أمور.

وشاع في ذلك الوقت بين الجامعيين أن طه حسين نقل تحقيقًا لرغبة عليا سامية؛ فتمادى مشرفة وقال: «وَلَوْ». ولم يبقَ الأمر كثيرًا أمام رغبة الصادقين والمحبين والمدافعين عن طه حسين. وعندما أُعِيدَ طه حسين للجامعة أعدَّ مشرفة في منزله حفلًا ضخمًا يليق بهذا الحدث ابتهاجًا وترحابًا به، وكانت

الناحية الاجتماعية من أكثر النواحي التي اهتم بها مشرفة، فكان يهتم بالعلاقات الأسرية؛ سواء في نطاق العائلة، أو في نطاق الأساتذة فيما بينهم في الجامعة، أو بينه وبين الطلاب، وكان يخصص يومًا من كل شهر يفتح فيه منزله لهيئة التدريس والطلاب والزائرين، بل يحض زوجته على أن تحتفي بهم وتكرمهم، وقد اقترح الدكتور مشرفة على مجلس الجامعة قبول الطلبة والطالبات من البلاد العربية والإفريقية بكلية العلوم، ووافق مجلس الجامعة على رأيه.

وفي حفل حضره الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق بالجامعة ١٩٤٦م قال مشرفة: إن هذه الجامعة دار للآداب والعلوم لتثقيف مصر والبلاد العربية، وتحرص على المشاركة في الحضارة البشرية كلها، وتود أن تساهم فيها بنصيب يكافئ مكانة العرب وتاريخهم، وإنها ساعية جهدها؛ لترد إلى العرب مكانتهم في العلوم والآداب، وتصل حاضرهم بماضيهم وتعد لمستقبل مجيد.

مواقف من حياة مشرفة

هناك في حياة مشرفة مواقف كثيرة تدل على عظمة هذا الرجل، نذكر منها:

مشرفة والورقة الأخيرة

وإذا تساءلنا عن آخر ورقة وقَّعَ عليها الدكتور مشرفة، في آخر مرة حضر فيها لكلية العلوم جامعة القاهرة قبل وفاته في يناير ١٩٥٠م!، كانت شِيكًا من حسابه الخاص مساعدة لطالب فقير لم يتمكن من سداد مصروفاته، وقد رد البنك هذا الشيك لعدم إمكان صرفه؛ لأنه وصل بعد وفاته، فتكرمت السيدة الجليلة حرم العالم النبيل بتحرير شيك آخر من حسابها الخاص.

فترى، أي طراز من الرجال كان مشرفة؟! ذلك الرجل الذي كان يسعى جاهدًا - كما يقول د. محمد مرسي أحمد - ليجعل من حياة الطالب الجامعي حياة متكاملة علميًّا وخلقيًّا ورياضيًّا، وكان يرى أن كلًّا من هذه النواحي يجب أن ينال من عناية الجامعة ما يهيئ الفرص للطلاب؛ لأن يتزوَّدُوا بالتقاليد النافعة وحب الوطن، بنفس القدر الذي يتزودون به من علم ومعرفة، علاوة على ذلك لم يكن يضن بوقته على تلاميذه.

ومن مواقفه التي لا تُنْسَى مع تلامذته؛ مساعدته لشباب الدول الإفريقية على الدراسة في الجامعة، والاستزادة من العلم والمعرفة، وكان ذلك عن قناعة تامة بأن هذا هو الطريق لتحرير البلاد والنهوض بها والاستقلال.

آمن دكتور مشرفة بمبدأ تكافؤ الفرص، وكان يبذل كل جهده من أجل تحقيق مبدأ العدالة، وكم من مرات عديدة دخل في منازعات مع زملائه إذا حاول أيٌّ منهم خرق القاعدة بأيَّة استثناءات، وكان له مقولة مشهورة - وهو يصرخ من أعماق قلبه في جرأة وقوة: إن تمييز طائفة ما هو إلا الشر بعينه؛ لأنه تفرقة بلا مبرر.

إن مشرفة يجد أن الجميع متساوون، لهم نفس الفرصة على اختلافهم في البساطة والوجاهة؛ فهو أبعد ما يكون عن اللجوء إلى المحسوبية؛ سواء في حياته أو عمله، وعندما كان يستعين أحد بمن هو قريب من مشرفة أو برجل ذي نفوذ أو منصب، كان يقول له: لا تحسب يا فلان أن اصطحابك لهذا يشفع لك في طلبك إن كان على غير حق.

أما إذا خاطبه أحد في أمر طالب من الطلاب رفض الاستماع إليه، وأتى بالطالب نفسه؛ ليستمع إليه.

كان تمسك مشرفة بالحق، وعدم أخذه بالاستثناء، وبعده عن الوساطة والمحسوبية أحد عوامل أدت إلى اتخاذ بعض علية القوم موقفًا منه، وكان لهذا التعامل تأثير سلبي على حياته.

مشرفة والطربوش

لم يكن مشرفة رجلًا إداريًّا حازمًا أدخل التطويرات على العمل – فحسب، بل اهتم باللغة وحسن التعبير في مراسلاته، وعلَّم موظفيه ألا يحيدوا عن الحق والصدق، وعلَّمهم اتخاذ المواقف التي تحسب لهم، والشجاعة التي تحفظ لهم هويتهم وكرامتهم في مواجهة أي موقف.

وفي نفس الوقت لم يلزم مشرفة نفسه بالروتين والمظاهر الكاذبة، في وقت تحتم التقاليد العتيدة ألا يدخل موظف على مرؤوسه دون ارتداء الطربوش، وإلا تعرض للجزاء، وبالرغم من حصوله على البكوية والباشاوية؛ فإنه لم يكن يقيم وزنًا لهذه التقاليد البالية التي لا تقدم ولا تؤخر، فهو عالم يرى الأمور بمنظور آخر، ويحسب التغييرات التي تطرأ على كل أمر من الأمور بميزان العلم لا المظهر الكاذب.

من أقوال العالم العظيم مشرفة لألبرت

أينشتين:

"في بلدي جيل يحتاج إليّ".

د. مشرفة

مشرفة باحثًا ورائدًا للأجيال

ضمن سلسلة من الدراسات التي قام بها العالم الجليل علي مصطفى مشرفة – وكان فيها رائدًا لأبناء جيله – ما قدمه عن إيجاد مقياس للفراغ؛ حيث كانت نظرية أينشتين تتعرض فقط لحركة الجسيم المتحرك في مجال الجاذبية، وبالرغم من جهود وأبحاث العالم مشرفة فإن أهم أبحاثه تلك التي تناولت الإشعاع الصادر من الشمس، وهنا تتجلى عبقريته في الأبحاث التي قدمها عن الإشعاع والسرعة، وتلك النظريات نالت اهتمامًا كبيرًا؛ مما ألقى الضوء عليها وعلى العالم مشرفة؛ حتى إنها حققت شهرة ليست فقط محلية، وإنما امتدت إلى العالمية.

وهنا نجد أن العالم مشرفة في كثير من حواراته كان يشرح نظريته قائلًا: تتجلى هذه النظرية في أن المادة إشعاع في أصلها، ويمكن اعتبارهما صورتين لشيء واحد، وتتحول إحداهما إلى الأخرى.

لقد مهدت هذه النظرية العالم بأسره؛ ليحول المواد الذرية إلى إشعاعات، وبالرغم من ذلك فقد كان مشرفة أحد العلماء القلائل في العالم الذين يعرفون أسرار الذرة، وكانت لا تتعداهم أصابع اليدين.

بل على العكس من ذلك، فقد أضاف مشرفة إضافة علمية بهرت العالم من حوله، ووقف العالم ينظر نظرة إعجاب وفخر عندما أضاف الهيدروجين، وأصبح من السهل أن تصنع منه القنبلة، ولكن مشرفة صاحب رسالة في الحياة، فلم يكن يسعى للشهرة أو الدعاية؛ لذلك تصدى لكل مَن حاول

استخدامها في الحرب طوال حياته، فلم يكن يتمنى استخدامها لتدمير الإنسان والإنسانية على وجه الأرض.

فالقنبلة الهيدروجينية أحد الأسلحة النووية - وبالتحديد - تعتبر من تلك الأنواع التي تسمى بالأسلحة النووية الاندماجية، وهناك نوع آخر يعرف بالقنبلة النووية الحرارية، وهذه الأنواع تصنع بواسطة تحفيز عملية الاندماج النووي بين نظائر عناصر كيميائية لعنصر الهيدروجين، وعلى وجه الخصوص التريتيوم والديتيريوم، ومن تفاعل هذين النظيرين ينتج ذرة هليوم مع نيوترون إضافي، وتقاس قوة القنبلة الهيدروجينية بالميجا طن، وتبلغ مليون طن من مادة (تي. إن. تي).

واستطاع مشرفة الوصول بعقليته المتميزة إلى معرفة سرِّ تفتيت الذرة، وقدرت أبحاثه في مجال الكم والذرة والإشعاع والميكانيكا والديناميكا بخمسة عشر بحثًا؛ أفرد لها مائتي مسودة، وكان يعدها جميعًا؛ لينال بها جائزة نوبل في العلوم الرياضية.

أنشأ مشرفة قسمًا للغة الإنجليزية والترجمة بكلية العلوم، كما حوَّل الدراسة في الرياضيات البحتة إلى اللغة العربية، وصنف قاموسًا لمفردات الكلمات العلمية من الإنجليزية إلى العربية.

يقول المؤرخون: إن الدكتور مشرفة أرسى قواعد جامعية راقية، حافظ فيها على استقلالها، وأعطى للدرس حصانته، وألغى الاستثناءات بكل صورها، وكان يقول: إن مبدأ تكافؤ الفرص هو المقياس الدقيق الذي يرتضيه ضميري.

لقد تمتعت كلية العلوم في عصره بشهرة عالمية واسعة؛ حيث عني عناية تامة بالبحث العلمي وإمكاناته، فوفر كل الفرص المتاحة للباحثين الشباب لإتمام بحوثهم، ووصل به الاهتمام إلى مراسلة أعضاء البعثات الخارجية وسمح لأول مرة بدخول الطلبة العرب الكلية؛ حيث كان يرى أن القيود القومية والفواصل الجنسية ما هي إلا حبال الشيطان يبث بها العداوة والبغضاء بين القلوب المتآلفة.

كما شارك مشرفة في مشاريع مصرية عديدة؛ تشجيعًا للصناعات الوطنية، كما ساهم في إنشاء جماعة الطفولة المشرَّدَة، وكان عضوًا بارزًا في مجلس إدارة مشروع القرى لانتشال القرية المصرية من بؤسها الحاضر؛ وذلك بالاشتراك مع الدكتور علي إبراهيم، والدكتور محمد مظهر سعيد، والأستاذ محمد فريد، والشيخ عبد الوهاب النجار، وقد التزم بآداب الحديث وإدارة الجلسات بأسلوب علمي ديمقراطي قائم على مبدأ وخلق رفيع.

رائد علم الرياضيات يخرِّج روَّادًا

كانت أجمل لحظات يعيشها مشرفة تلك التي يلتقي فيها بتلاميذه، ويبثهم حبه للعلم، ويعطيهم الأمل في المستقبل، ويشجعهم ليكونوا رُوَّادًا في مجالاتهم، وعلاقة محمود حافظ مع مشرفة تبدأ عندما كان محمود حافظ قد قدم أوراقه للالتحاق بكلية الطب، ولكن أشار عليه صديق والده أن يترك كلية الطب لصعوبتها، ويلتحق بكلية العلوم التي قد افتُتِحت حديثًا، وذهب محمود حافظ

ليقابل د. مشرفة - الذي هو من بلده، ورئيس قسم الرياضيات - وفهم منه مشرفة أن عشقه لجمع الفراشات والحشرات ذات الألوان الزاهية وملاحظة طرق حياتها يملأ عليه حياته ووجدانه، وعندما سأله مشرفة عن هواياته وأصدقائه قال له: كنت أخرج مع أصدقائي وأترك بلدتي فارسكور بدمياط، وأذهب إلى القرى المجاورة؛ لجمع الفراشات والحشرات ذات الألوان الزاهية من الحقل، والتي تعلمت طريقة تحنيطها من أستاذي محمد إبراهيم؛ فرسخت هذه الهواية في وجداني.

ضحك د. مشرفة، ونصحه على الفور أن يلتحق بقسم الحيوان؛ أقرب قسم لكلية العلوم؛ لأنه يناسب طبيعته وهوايته، ومن هنا نشأت العلاقة بين د. مشرفة ومحمود حافظ الطالب بكلية العلوم.

كان هذا اللقاء بمثابة نقطة تحول في حياة محمود حافظ، ويروي د. محمود حافظ بعض المواقف؛ فيقول: كنت في سبيلي للبعثة التي أوفدتني إليها كلية العلوم، وما كان من أستاذي العظيم مشرفة إلا أن أخذ بيدي - كما كان نهجه دائمًا مع تلامذته فيشجعهم - ومن أهم كلماته التي أذكرها: اجتهد فإنما نعدك؛ لتكون عالم الحشرات الأول في مصر.

وقد تحقق الأمل، وعاد محمود حافظ باللقب الذي تنبأ له به العالم الكبير مشرفة، والذي شجعه من أجل نيله، فدور الأستاذ يأتي أولًا؛ ليكون هناك جيل من العمالقة يسيرون على نهج العمالقة الأوائل، فمحمود حافظ رائد علم الحشرات تتلمذ على يد مشرفة رائد علم الرياضيات، فكان مرجعه الأول في حياته العلمية والعملية.

كان لحافظ بصمة كأستاذه مشرفة؛ فقد ساهم في إنشاء قسم الحشرات بكلية العلوم بجامعة القاهرة، وعمل على تطويره على مدى ستين عامًا، وكان له الفضل الأول في إنشاء متحف الحشرات بالقسم.

ولم يكن د. حافظ الوحيد الذي تتلمذ على يدي مشرفة، فهناك فهمي إبراهيم ميخائيل؛ أستاذ النسبية ورئيس قسم الرياضيات بكلية العلوم بجامعة عين شمس، ثم وكيل الكلية الأسبق، وكان فهمي أحد هؤلاء التلاميذ الذين اتسموا بالنُّبُوغ والعبقرية، وتتلمذوا على يد العالم مشرفة، وتأثر فهمي بأستاذه مشرفة تأثرًا كبيرًا؛ خاصة في فترة الإعداد للماجستير والدكتوراه؛ حتى إنه عمل في نفس التخصص والموضوع في أعمال ألبرت أينشتين، متأثرًا في ذلك بتلك المحاضرات التي ألقاها على دفعته د. مشرفة عن نظرية النسبية العامة، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن في أحد تطبيقات نظرية النسبية العامة؛ والذي يُسَمَّى علم الكون، ويجيب هذا العلم عن بعض الأسئلة، مثل: ما عمر الكون؟ وكيف خُلِق؟ وما مستقبله؟ وما مقدار المادة و الطاقة المختزنة به؟

مشرفة والبروفيسور "ساها" الهندي

لقد أحدث مشرفة بكلية العلوم طفرة بكل المقاييس، فكان يدعو لها كبار العلماء في العالم؛ ليحاضروا فيها، وفي أحد الأيام نمى إلى علم د. مشرفة أن البروفيسور «ساها» موجود في مصر - وساها عالم هندي بارز في مجال الرياضيات، وحصل على جائزة نوبل فيها - وعلم مشرفة أن ساها لن يمكث بمصر طويلًا؛ فهو يقوم برحلة إلى إنجلترا ويمر بمصر أثناء الرحلة، وأدرك

مشرفة أنه لمكسب كبير للجامعة المصرية وطلابها أن يستمعوا لهذا العملاق، فخرج من الجامعة باحثًا في كل مكان عن البروفيسور ساها؛ فقضى يومه وليلته بين فنادق القاهرة، وكلما خرج من فندق ولم يجده ازداد إصرارًا في البحث عنه؛ حتى عثر على ضالته، فوجده في أحد الفنادق، واتفق معه على أن يحاضر في كلية العلوم، وعاد مشرفة إلى الجامعة، وهو يحمل نبأ سارًّا لطلبتها.

كان مشرفة لا يكل ولا يمل من العمل والبحث لصالح الجامعة و لصالح بلاده؛ لذلك عُيِّن أستاذًا للرياضة التطبيقية بكلية العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٢٦م، بالرغم من عدم سماح قانون الجامعة بذلك، كما انتُخِب أربع مرات متتالية للعمادة بالكلية؛ لتفوقه العلمي وتميزه وعلاقاته الممتازة مع الأساتذة والتلاميذ، فكل شيء في مشرفة يقول إنه متفرد متميز في عبقريته،كما اختير عضوًا في اللجنة الدولية للأبحاث الذرية سنة ١٩٣٦م، وأنشأ المجلس الأعلى للبحوث، كما اختير عضوًا في هذا المجلس بعد وفاة الملك فؤاد، وكان اسمه: مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث. ورأس عدة لجان منها: لجنة الطبيعة، ولجنة طبيعة النيل.

إن هؤلاء الساسة الذين لم يسلكوا المسالك القومية في مجالاتهم لم يتركوا مشرفة يعمل في راحة بال، بل كانوا كثيرًا ما ينقلون المسرح السياسي إلى الجامعة، وكان مشرفة يضيق بذلك كثيرًا، وكان يقول مقولته المشهورة: إني لا أطلب من القادة والحكام في مصر سوى ترك الجامعة تؤدي رسالتها السامية بعيدًا عن الميول السياسية، وترك الطلبة لإتمام دراستهم في هدوء واستقرار.

كان د. مشرفة عضوًا بارزًا في مجلس إدارة مشروع القرى، وهدفه نشل القرية المصرية من بؤسها الحاضر، وفي عام ١٩٤٥م تم اختياره وكيلًا لجامعة القاهرة.

ظاهرة شتارك، وزيمان وجائزة نوبل

واصل مشرفة العمل في أبحاثه ليل نهار، وتمكن بعد أن نال الدكتوراه أن ينشر خمسة أبحاث حول النظرية التي نال عليها درجتي الدكتوراه في الآداب أو العلوم، أما الموضوع الذي سيطر على لبِّ مشرفة فهو إيجاد الشروط الكمية بصورة معدلة، هذه الصورة دارت حول تفسيره لظاهرتي شتارك وزيمان.

وجوهانس شتارك عالم ألماني نال جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩١٩م، وهو مكتشف انقسام خطوط الطيف في المجال الكهربي، ومن أعظم اكتشافاته ما يُعرف بتخصص شتارك في نظرية الإشعاع، ومن إسهاماته العظيمة إنجازاته في النظرية الذرية من خلال فجوات أو قنوات مهبطية من أيونات موجبة تنتج عن توصيل الكهرباء، وذلك يحدث من خلال غاز يسمح له بالانتشار، كان ذلك في عام ١٩٠٧م.

بعد ذلك بعدة سنوات اكتشف شتارك الأثر - وهو ما يعرف بالتأثير - وهذا يتضح من خلال انفلاق خطوط الطيف لذرات؛ خاصة الهيدروجين، وذلك إذا ما تعرضت لمجال كهربي قوي، وكان ذلك في عام ١٩١٣م.

في نفس منطقة الاهتمامات قابل مشرفة ما تعرض له العالم زيمان، عندما تعرضت خطوط الطيف لمجال مغناطيسي قوي بما قدمه شتارك، علاوة على تأثير دوبلر في الأشعة، وكانت مقابلة رائعة قلبت العالم رأسًا على عقب، وحولت الأنظار ناحيته.

عن أهمية العلم لصاحب المال، يقول مشرفة:

"فالمال إذا اقترن بالعلم سما بصاحبه إلى سماء الواجب، وأحاطه بقدسية الضمير، وتحولت حريته في استخدامه من حرية الجاهل إلى حرية العالم، وشتان"

د. مشرفة

مشرفة العاشق

مشرفة عاشق العروبة

وكأنه جزء لا يتجزأ من أرض مصر العظيمة؛ فقد كان شامخًا شموخ الأهرامات وأبي الهول، يشهد عليه لونه القمحي الذي استمده من أشعة شمسها الذهبية، وطمي نيلها العظيم؛ فغزارة شعره تذكرنا بيوم حصاد قمحها الغزير، وتورُّد خدَّيه يذكرنا بورده البلدي، تجذبك ملامحه كما تجذبك الأرض والنيل؛ فمن يطأ أرض مصر لا يستطيع إلا أن يعود إليها، وكذلك مَن يتحدث إلى مشرفة ويعرفه لا يستطيع أن يتركه أبدًا؛ فقد جمع مشرفة صفات أجداده ما بين الفصاحة والفكاهة... وأحب أهله وأخلص لهم ولوطنه.

كان مشرفة وطنيًا من الطراز الأول؛ ذلك الطراز الإيجابي المتفهم لطبائع الأشياء، والطموح إلى عظائم الأمور، وليس هناك شك في الدافع الوطني في كل ما قام به مشرفة من جهد في سبيل تقدم بلاده في شتى الميادين التي استطاع أن يتسلم عجلة القيادة فيها، وفي مختلف المجالات التي ساهم فيها بقلمه أو عقله أو بيده أو لسانه.

ولم تكن وطنية مشرفة في كل ذلك - فحسب - بل حباه الله نوعًا من الكرامة الوطنية التي دفعته في يوم من الأيام إلى طرد أستاذ أجنبي من كلية العلوم؛ بسبب حماقة ارتكبها في حق مصر أثناء حديث من الأحاديث العابرة، وكان مشرفة لا يكف عن إظهار عدائه للمستعمر الإنجليزي، منددًا به بالرغم من الرابطة القويَّة بين مشرفة وإنجلترا، وكثيرًا ما نادى مشرفة بضرورة اهتمام البلاد العربية بالعلم، وكان لا يكف عن الدعوة إلى توجيه الرأي العام

في البلاد العربية صوب الفكرة العلمية، ولم يكن يقصد بتلك الفكرة العلمية إلا أن نفكر - نحن والعرب - بعقلية العلم التي تواجه الحقائق، وتعنى بالجوهر دون العرض، وتطلب اللُّب لا القشور، كما كان يدعو إلى العناية بتمجيد السلف من علماء العرب؛ حتى يكون في ذلك حافز للاقتداء بهم وتتبع خطاهم واستكمال مسيرتهم.

ويرى د. محمد الجوادي أن الساسة في كل بلد نامٍ يتعلمون من مشرفة وأمثاله العلماء؛ كيف يتم تحقيق الانتصار الضخم في كل مجال من مجالات الاعتراك على الحياة، ولو ذهب الساسة المصريون مذهب مشرفة في محاربة المستعمر وتحقيق الاستقلال؛ لنهضت مصر على أيديهم في سنوات قصار.

إننا إذا أخذنا قطرة.. قطرة.. من دم مشرفة وحللناها، فلن نجدها تنطق سوى العروبة؛ فهو يحب كل شيء عربي؛ اللغة العربية لغة القرآن، التي يحبها ويفهمها فهمًا دقيقًا، ولغة الأحاديث؛ فهو يحفظ الصحيحين: البخاري ومسلم، وعندما أقامت كلية العلوم حفلًا عام ١٩٤٢م قام بترجمة واحدة من أجمل الأغاني التي اختارها لأشهر الموسيقيين العالميين؛ لِتُغَنَّى بالعربية، وحتى لا تكون الأغنية عربية بنغمات أوربِّيَّة، صمم بيانو عربيًّا؛ لينطق بالشرق وأصالته.

ومما يُذكَر للدكتور مشرفة في غيرته على بلده ووطنه وعروبته؛ أنه عندما أقام اللورد كليرن «سير مايلز لامبسون» حفلة في دار السفارة البريطانية، كان الدكتور مشرفة يقف بجواره، فتقدم منه أحد المسؤولين في السفارة، وسأله ببرود وسخرية: حقًّا يا دكتور مشرفة أن أغلبية الشعب المصري تكرهنا؟ فرد عليه الدكتور مشرفة ببرود أشد قائلًا: ولماذا تغفل الأقلية يا سيدي؟ فوجم الجميع، وبهت كليرن، وانصرف دكتور مشرفة بعد أن اقتص لكرامته وكرامة أمته.

إن الكلمات لتعجز عن وصف رجل عظيم بحجم مشرفة؛ فقد عرف عن كل شيء، ونبغ في الرياضيات، ومارس الرياضة البدنية؛ فكان يمارس رياضة التنس، وكان عضوًا في نادي مصر الجديدة الرياضي، وعضوًا في نادي الجزيرة الرياضي، وكانت لها كؤوس تتهادى بها الفرق الرياضية.

إن موسوعية الدكتور مشرفة الذي حفظ الشعر، وألمَّ بقواعد اللغة العربية، بل كان عضوًا بالمجمع المصري للثقافة العلمية باللغة العربية، وكان مواظبًا على حضور الندوات والمناظرات، ومن أشهر مناظراته: مناظرته مع عميد الأدب العربي؛ الدكتور طه حسين بعنوان: «أيهما أنفع للمجتمع الآداب أم العلوم؟»

مشرفة.. العاشق

أناس كثيرون يحبون، أو يتوهمون أنهم يحبون، ولكن مَن يحبون؟ وماذا يحبون؟ منهم مَن يحب امرأة، ويذوب عشقًا في عينيها أو جسدها البضِّ أو قوامها الفتَّان، ومنهم مَن يعشق دون أن يعرف لماذا! ولكن د. مشرفة عندما يعشق فإنه يستطيع أن يجيب على ثلاثة أسئلة: مَن يعشق؟ وماذا يعشق؟ ولماذا يعشق؟

لقد كان واضحًا في كل شيء عشقه للقومية العربية، وأجاب علينا في كل تصرف، وفي كل سلوك، وفي كل زيارة لبلد من البلاد؛ ليؤكد على أنه عربي مائة بالمائة، ومصري أصيل غيور على دينه وعرضه ووطنه، وكان غيورًا على المخطوطات العربية المتفرقة الأشلاء في كل مكان، كأنه غيور على أفراد أسرته، فالمخطوطات القديمة كالخوارزمي وأبي كامل في الجبر والحساب، وابن الهيثم في الطبيعيات، وجابر بن حيان في الكيمياء، والبيروني في الفلك، وابن البيطار في

النباتات يعرف عنها الغرب أكثر مما نعرف نحن، ويقومون بشرحها وترجمتها والتعليق عليها، وينشرون كل هذا بلغات أجنبية في مجالاتهم العلمية، والأجدر بنا أن نقوم نحن بذلك.

مشرفة.. رأس الفضائل

اندمجْتُ مع سيرة د. مشرفة حتى صرت أحسب نفسي من أعز أصدقائه؛ فقد شعرت أنني عاصرته يومًا بيوم، وقضية بأخرى في أيام غربته، وفي قيمه وفضائله، وأحسست أن الأيام تتداول فيما بينها، ولكن دومًا يختفي المتميزون، ويظهر على الساحة المسطحون فكريًّا، وكأنني ومشرفة يقصُّ بعض حكايات عصره أراها أمامي في التوِّ واللحظة بأشخاص أعرفهم جيِّدًا؛ فهناك مجالات حسبناها منزهة عن العبث، ولكننا نفاجَأُ عندما ندخلها أن الأشخاص القائمين عليها حَوَّلُوهَا إلى عبث، وأنقصوها قدرها!

ونحن نجد أن الدكتور محمد الجوادي في حوار افتراضي مع د. مشرفة – من خلال آرائه وأحاديثه – يُبَلْوِرُ لنا رأيه، فيقول مشرفة:

إن طلب العلم إن لم يكن رأس الفضائل جميعًا فهو منبع من أصفى منابعها، فطالب العلم طالب حقيقة، ومَن طلب الحقيقة أحب الحق، ومَن أحب الحق كان صادقًا، ومن كان صادقًا كان شجاعًا ذا مروءة، ومَن كان ذا مروءة كان كريمًا، ومن كان كريمًا كان رحيمًا وأحب الخير وناصر العدل وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وإذا أراد امرؤ أن يتأكد من وجود العلاقة بين العلم والأخلاق؛ فعليه أن يبحث عن هذه العلاقة بين الذين يشتغلون بالعلم ويحملون رسالته، لا بين الذين يُلقَّبون به أو يحملون شهادته.

ولطالما خطرت على بالي أسئلة عديدة، وجدت إجاباتها على لسان مشرفة؛ فكثيرًا ما سألت نفسي: ما الذي تحتاجه مصر كي تتقدم؟ وكثيرًا ما سمعت من الآخرين سؤالًا: ما الذي ينقصنا نحن المصريين؟

- مشرفة: نحن في مصر أحوج ما نكون إلى انتشار الروح العلمية بيننا؛ فالنظرة العلمية إلى الأمور نظرة بعيدة عن الغرض، لا تشوبها الشهوة، ولا تتسلط عليها الأنانية، هذه النظرة هي وحدها التي تصلح لمعالجة المشكلات العامة وحل المسائل القومية، سواء أكان ذلك في ميدان الاجتماع، أو ميدان السياسة، أو ميدان الشؤون الاقتصادية والمالية، وكثير من المشاريع والأعمال في مصر تخفق أو تُطوى بسبب الأنانية، وتغلب النزعة الشخصية على النظرة الموضوعية؛ فيُحْجَبُ وجه الحقيقة، وتضيع معالم البحث، ويحل التنابذ والتطاحن محل التفاهم والتعاون، وإذا كان هناك بحث فإنه في الغالب بحث لفظي قوامه الجمل المنمقة، أو الجدل الأجوف الذي لا يرتكز على تجارب ولا يعتمد على حقائق؛ فهو جدل بغير علم ولا هدى.

ويجيب د. مشرفة على تساؤل السمو بالأخلاق في الأمة عن طريق العلماء.

- مشرفة: لأنه يرتفع فوق الصغائر والدنايا إلى سماء الحقيقة الخالدة، والعلم عَلَم من أعلام الفضيلة؛ لأنه يسمو فوق الشهوات، ولا يحفل بالمآرب الفردية، وهو مطهِّر للنفوس من أدناس الأنانية؛ لأنه يحمل شعلة مقدسة تذيب الأثرة، وتمحو حب الذات، وتحل محلها الإيثار والرغبة في خير المجتمع.

وعن كيفية قيام العلماء بدورهم من وجهة نظره؟

مشرفة: من أوجب الواجبات على الدولة أن تترك العلماء أحرارًا في حكمهم على الأمور، وأن تشعرهم باستقلالهم؛ لأنهم قادة الفكر، وعلى العلماء أن يتمسكوا بهذا الاستقلال، فاستقلال العلم والعلماء شرط لابد منه لحياة العلم والفضيلة على حد سواء، وإذا ضاع استقلال العلم ضاع العلم وضاعت الفضيلة بل وضاعت الأمة، وقد بقيت أوربًّا ألف عام في ظلمات العصور الوسطى؛ لأن أمورها كانت في أيدي قوم لا يؤمنون بالحق، ولا يؤمنون باستقلال العلم فاضطهدوا العلماء، وحاربوا حرية الفكر، وانغمسوا في الجهالة محتمين وراء الجدل اللفظي الأجوف؛ فعمَّ الظلم والضلال.

"ولو أن الألمان توَصَّلوا إلى صنع القنبلة
الذرية قبل الحلفاء لتغيرت نتيجة الحرب"

د. مشرفة

في ركاب الأقوياء

عصر الأقوياء.. نحن نعيش هذا العصر.. وكلما تقدم العالم تكنولوجيًّا نجد أن التعامل الإنساني يتراجع؛ فإما أن نكون أقوياء، وإما ستدوسنا الأقدام؛ إنها أقدام الأقوياء، لماذا نقف في صفوف المتفرِّجِين؟! نحن نعيش في عالم مقياسه القوة، فلما كان مقياس القوة والسلطان هو المقياس الشائع بين الناس؛ فإن علينا أن نتسلح، لقد استشهد مشرفة بالمبدأ القائل: كل سلاح لا ينجو منه إلا من كان قادرًا على رد العدوان بمثله. واستشهد مشرفة لهذا المبدأ باستخدام الغازات السامة في حرب الإيطاليين ضد الأحباش؛ لأن الأحباش كانوا لا يملكون استخدام الغازات السامة، بينما لم يجسر الألمان على استخدام الغازات السامة ضد الإنجليز؛ لأن الإنجليز يستطيعون أن يكيلوا لهم الصاع بمثله، ولم يترك مشرفة الإمكانات المصرية في شأن الذرة واحتمالات النجاح والفشل، وكرر الحديث عن وجود اليورانيوم، ودعا إلى تدبير سبل الوقاية من أخطار الحروب الذرية، ومِن ثَمَّ وجب علينا أن نبدأ فورًا في إعداد وسائل الوقاية السليمة من الغازات الذرية، وقد تساءل مشرفة: هل ستُستَخْدَمُ الطاقة الذرية في تدعيم سلطان الأقوياء والتحكم في الضعفاء؟ وهل سيستمر الجشع والطمع متملكَيْن من نفوس البشر فيُعْمِيَانِهِم عن الحق، ويَصُمَّانِهِم عن صوت العدل؟

لقد قرر مشرفة في ختام كتابه «الذرة والقنابل الذرية» حقيقةً مهمةً حين قال: ولو أن الألمان تَوَصَّلُوا إلى صنع القنبلة الذرية قبل الحلفاء لتغيرت نتيجة الحرب. كما قال: هل يظن ساستنا حقًّا أنهم يستطيعون أن يصلوا إلى شيء ونحن عُزل

من العلم وأسلحته؟! لقد أخبرنا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أنهم أنفقوا ألفي مليون دولار في الأبحاث العلمية التي تفيد الحرب، معتمدين على معونة العلماء! فكم مليونًا، بل كم ألفًا خُصِّصَت من ميزانيتنا للبحوث العلمية؟!

هذه هي المسائل الجوهرية التي يجدر بالمفكر أن يُنْعِمَ النَّظَرَ فيها، والتي يجب على القادة والزعماء في كل دولة أن يُولُوها عنايتهم، وأن يتمسكوا في حلها بالعروة الوثقى؛ لكي لا تَزِلَّ أقدامهم فَيَسْقُطُوا، وتسقط معهم البشرية في هاوية سحيقة.

وبالرغم من مرور السنوات فإن علماءنا يعودون لنفس الدور؛ فها هو د. حامد عبد الرحيم أستاذ الكيمياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة، يذكرنا بما فعله وقاله أستاذه مشرفة، حتى إنه يستشهد بحوار له من إحدى عشرة سنة؛ فنجده يقول في مقال له بعنوان «مصر والعرب في الخيار النووي»: أخيرًا دعا وزراء الخارجية العرب في آخر اجتماع لهم إلى التوسع في الاستخدامات النووية، وتنفيذ استراتيجية عربية خاصة بامتلاك التقنية النووية السلمية حتى عام ٢٠٢٠م، وقد سعدت بهذا القرار؛ مما دعاني إلى أن أعود بالذاكرة إلى المقال الذي نُشِر بجريدة الأهرام ١٩٩٥م أي منذ أحد عشر عامًا تقريبًا؛ بعنوان «حتى لا تضيع مائة عام أخرى»؛ تلك الدعوة التي دعا بها علماء أجلاء من الرعيل الأول أمثال د. مشرفة ود. عبد الحليم منتصر، بأن على مصر أن تعير المسألة النووية كامل رعايتها، وأن تدخلها في حساباتها، مع وضع الخطط الإيجابية التي تحدد لنا ماذا نحن فاعلون إذا ما جد الجد وتفاقم الأمر؟

ويتساءل الدكتور حامد عبد الرحيم: أما آن الأوان أن تعيد مصر مرة أخرى التفكير في إعادة البرنامج النووي السلمي إلى حيز الاهتمام؟ وأتساءل بدوري: متى نقوم من غفوتنا؟ ومتى نستمع لعلمائنا القدامى والمحدثين وهم ينادون بنفس المطلب عبر أكثر من مائة عام؟ فالعلماء هم ذخيرة الأمة؛ فعلينا إذا ما أشاروا أن ننظر صوب الإشارة ونُنَفِّذَ فورًا، وقد نادى مشرفة من قبل بأهمية اليورانيوم، وضرورة التسليح النووي من أجل الذرة.

ويعود د. حامد عبد الرحيم فيقول: إن إعادة تقدير عربي لما يدور اليوم أمر في غاية الأهمية؛ فالتطورات ذات الطابع الاقتصادي التكنولوجي، لا تقل أهمية عن التطورات ذات الطابع العسكري، ولم يعد هناك مبرر لاستمرار تجميد المشروع النووي السلمي.

هل تنتحر البشرية بالعلم؟!

يقول د. مشرفة: والذين يَتَخَوَّفُونَ من أن يقود العلم الإنسانية إلى الحروب الكبرى متشائمون. وإذا صدرنا عن حكمهم، فمعنى ذلك أننا نحكم على الأسرة البشرية بالجنون الوراثي؛ وذلك لأن الأسرة البشرية يمكن تشبيهها بصبي قد بدأ يقوى ويشتد ساعده، كما بدأت مداركه تتسع ويزداد علمًا بأسرار القوى الطبيعية التي تحيطه؛ فهو يستخدمها لأغراضه المختلفة، وهو لا شك واجد يومًا ما طريقة أو أكثر من طرق الانتحار يستخدمها لأغراض مختلفة، وأصدقاؤنا المتشائمون يريدوننا نعتقد أن طلب الهلاك غريزة من غرائز هذا الصبي، أو نزعة في تركيبه الجنوني؛ فهو بمجرد أن يعثر على طريقة مثلى

للانتحار يبادر لاستخدامها لإنهاء حياته، وكلٌّ ما أستطيع قوله لهؤلاء: إنه إذا كان الأمر كما يزعمون؛ فالأولى بهم أن ينتحروا – من الآن – اختصارًا للوقت والمجهود، أما إذا تغلبت غريزة حب البقاء فيهم؛ فكرهوا مشورتي فليسمحوا لي أن أقول: إن هذه الغريزة ذاتها – وهي من أقوى غرائز الجنس البشري – إذا أضيف إليها التعقل والحضارة اللذان سينشآن حتمًا من زيادة المعرفة البشرية، فمن شأنها جميعًا أن تحول لنا النظرة إلى مصيرنا بعين المتفائل المطمئن.

"إن الهناء غاية نبيلة، يستحق أن يبذل
فيها جُلّ جهوده، بل لعلها أنبل الغايات"

د. مشرفة

مشرفة.. أديبًا

عالم الرياضيات مشرفة متابع جيد للمجلات الأدبية، وما يجري على الساحة من أدب وعلم وفن وسياسة! لقد كان مشرفة أديبًا يباري الأدباء، وعالِمًا يناطح العلماء، ورجل دين يجادل ويعظ كأفضل رجال الدين، فالعلم والأدب لا ينفصلان.

فقد شارك د. مشرفة في مسابقة عام ١٩٢٧م في مجلة الهلال بمقالة بعنوان: «كيف يعيش المرء هنيئًا في هذه الحياة؟»، جاء في المجلة: نشرنا في الجزء الماضي من الهلال المقالين اللذين نالا الجائزة في مسابقة الهلال، وأولهما السيدة أم كلثوم عودة «فاسيليا» من لينتجراد بروسيا، وثانيهما لمحمد توفيق يونس أفندي من مصر، ووعدنا بنشر ردود أخرى مستحسنة، وها نحن أولاء ننشر هذه الردود، ولابد لنا هنا من إعادة ما قلناه من قبل؛ وهو أن لجنة التحكيم اعتمدت في حكمها على شرط المسابقة المنشور في الهلال، ومنه يظهر جليًّا أن المطلوب إيراد اختبارات شخصية ومشاهدات واقعية، وليس مجرد البحث النظري، وها هو رد مصطفى مشرفة: هذه صورة من السعادة؛ لها مـمَّا اشترطه الدين للهناء قَدْرٌ، ولها مما اشترطته الفلسفة قَدْرٌ آخر، ولها مما اتفق الناس على أنه مثل أعلى للهناء نصيب أكبر من نصيبها من سعادة الدين والفلسفة.

وهي صورة حية لرجل حَيٍّ؛ له آمال وضمير، وبه ضعف البشر، وحوله فتنة الدنيا وزينتها، تغلبه الشهوات حينًا فيرضيها، وتعصمه الفضيلة أحيانًا فيعتصم بها، وهو يحيا بين ذلك جَمَّ الأمل في الخير، شديد الثقة بنفسه، دائم العمل لهناء زوجته وأولاده.

في صورة صديق أجنبيٍّ له من العمر أربعون عامًا، وله من زينة الحياة زوجة وأربعة صغار، يسعى جهده ليعولهم ويسعدهم؛ فيشتق من ذلك بعض سعادته، أصابه من محن الحياة ما لو أصاب غيره من سواد الناس لنَغَّصَ عليه عيشه، وسارع في غير أوان إلى وهن الشيب وركاكة الكبر، ورغم ذلك فقد استطاع الرجل أن يسقط من حساب المقدر لعمره فوق الخمسة أعوام؛ بفضل ما احتفظ به من رونق وشباب.

سألته يومًا: أأنت سعيد يا فلان؟ فلم يتردد في الإجابة بالإيجاب، قلت: فبماذا أنت كذلك؟ فمضى برهة في صمت باسم وديع لا يشوبه تقطيبة التفكير، ثم ضحك قائلًا: سوف أخبرك الآن كيف مارست هذه المهنة؛ مهنة الهناء حتى قربت من حذقها، أول عوامل السعادة عندي: الشعور بالحياة، وثانيها: الضحك، وثالثها: أن يصور المرء لنفسه صورة من السعادة؛ لتتفق ووجدانَه. أما شعوري بالحياة؛ فبتقدير نعمها وجمالها في كل ما يحيطني من مناظرها، ولقد مارست اكتساب هذا الشعور في أول أمري عن طريق الذكرى؛ حيث رأيت فيما مر بي جمالًا لم أرَه في وقته، ونعمة لم أحسها لساعتها، حتى الآلام والمحن والأمراض رأيت حولها نعمًا وجمالًا لو أنني انتهيت لها – وقتئذ – لخففت هذه المتاعب عني.

قلت: اضرب لي مثلًا. قال: مالي والأمثال؟! ألا تذكر عهد الدراسة في أيام الصبا؟ قلت: بلى أذكره. قال: فارجع بذاكرتك الآن إليه؛ ترَ لتفكيرك في قارس البرد بالذهاب إلى المدرسة وفي مشاجراتك ومشاكلك اليومية، بل حوْلَ كل ما كان ينغص عليك عيشك ويسبب لك الآلام لذة وجمالًا غابا عنك وقتها؛ حيث صرفتك الآلام عن رؤية الناحية الجميلة المُمْتِعَةِ.

وارجع بذاكرتك إلى مرض أصابك في زمن بعيد؛ تَرَ في عناية أهلك بك وفي عيادة أصدقائك لك، بل وفي استكانتك في الفراش، وشعور العطف الذي أحاطك جمالًا ومتعة صرفك عنها وقتئذ غلوُّك في تقدير مصيبتك، وأضعف شعور تقدير الجمال في نفسك.

وارجع بذاكرتك أخيرًا إلى يوم ضيق، تجد لكسرة الخبز التي أصبتها بعد عناء لذة، لا تدانيها لذة اللقمة السائغة والطعام الذي لم تبذل في الحصول عليه جُهْدًا كبيرًا، وما عليك بعد ذلك إلا أن تنتقل في تقديرك هذا وشعورك بالحياة، وعليك أن تنمي هذا الشعور فيك بالأمل والتفاؤل، وعليك أن تقول لنفسك وأنت تسير مثلًا: إنني قادر على السير. وأن تؤكد لها أن في القدرة على فعل الشيء نعمة ولذة، وأن تقول لها وأنت تستنشق الهواء فتملأ به رئتيك: إنني أستنشق الهواء وألتذ به، وهكذا في كل مظاهر حياتك.

ولكن لا تقل لها وأنت في عسر أو مرض أو ألم: قد كنت صحيحًا قادرًا بالأمس، وأنا اليوم مريض أو معسر أو متألم، كما أن من السخف أن تقنع نفسك أن في مجرد الشعور بالألم لذة، إنما عليك أن تقول لها: غدًا سوف أبرأ فأشعر بلذة الصحة المضاعفة، وغدًا سوف تنفرج الحال، وغدًا سوف تزول الآلام، وعليك أن ترى ما يحيط بالمصاعب مما يُعَزِّي النفس ويخفف عنها، وتأكد أن ليس في هذه الحياة من المتاعب، ما يصعب على المرء التخلص من أثره في إتلاف سعادته، سوى الألم الجسماني المستمر، فما عداه حالات نفسية يُهَيِّئُها المرء لنفسه وفق نظراته للحياة، ويستطيع الإنسان أن يهون من شأن الألم الجسماني بالضحك، وبأن يخلق مما حوله سلوى ينصرف إليها بذهنه.

والضحك أكثر ما يتحتم ملازمته لنا في الحياة؛ لإسعادها وتخفيف وطأة آلامها، ولقد كنت في أول ممارستي إياه أرسله في تكلف إلى أن صار طبعًا، وكنت ألتمسه قبل زواجي بين الأصدقاء الطروبين، وفي دور التمثيل الهزلي، وفي الرياضة البدنية فصرت أجده بعد زواجي لامرأتي التي حاوَلْتُ جُهْدِي أن أحسن اختيارها، وفي لعبنا سويًّا، وخروجنا إلى الهواء الطلق والنزهات الخلوية، وفي قراءتنا الكتب والمجلات الفكهة، وغشياننا دور التمثيل الهزلي كي توفر لدينا الميل له، فلما رَزَقَنَا الله أولادنا كان لنا بهم هناءٌ جديد، يفوق كل ما ذقناه من هناء.

إنِّي أُهْرَعُ إلى بيتي بعد انتهاء عملي، وهو وكر هنائي ومنبع سعادتي؛ فألعب مع أطفالي المحبوبين حتى ليحسبني الرائي طفلًا أو مجنونًا، وأداعب زوجتي وأضحك معها وأشركها في لعبنا، وأذكي في نفسي حبي لها؛ حتى يخيل إلي أحيانًا أنني شاب حديث العهد بالزواج وسعادة الغرام. وإنني أضحك في آلامي، وأضحك في مرضي، وأضحك في متاعبي حتى أكاد أفقد الحس بأثرها.

هناك آلاف من الناس يهمهم جدًّا أن يُشعِروا الناظرين بآلامهم ومصائبهم؛ فتجدهم يتكلفون مظاهر الجِدِّ والتقطيب والبؤس لأتفه الأسباب وأهون المصائب، وهم لا يعلمون أنهم بذلك يضاعفون مصائبهم، ويتلفون حياتهم، وينمون في أنفسهم داء التشاؤم الوبيل، بل ويُحَمِّلُونَ الناس آلامًا وهمية بغير سبب ولا مبرر.

أما صورة السعادة التي يجب أن يصورها المرء لنفسه بحيث تتفق ووجدانه؛ فلا أحد من الناس يجحد الفضيلة ويحب الرذيلة، وما أظنُّ أحدًا من الناس لا يرجو لنفسه ولغيره الخير، كما لا أظن أحدًا لا يبغي هناء العيش ولو أن جلَّهم لا يعملون له.

فصورة السعادة التي صورتها لنفسي صورة تتفق بقدر نـور عقـلي مـع الخـير والهناء، وهي صورة مرنة لا أثر للتعصب فيها، إن نعيمي الآن - وقد تزوجت - في داري وزوجتـي وأولادي، وهنـائي في أن أُرَبِّيَ أَوْلَادِي وألعـب معهـم، وفي أن أساعد زوجتي وتساعدني، وأن أحمل عنها متاعبها وتحمل عني متـاعبي، وفي أن أخلق لي ولها اللهو البريء في أوقات فراغنا، ولذة في اكتساب رزقنا جميعًا.

هذا هو جانب متع الدنيا من صورتي، أما جانب الخير وحب الفضيلة: فأنا إنسان لا أخلو من ضعف البشر ومن اقتراف الذنوب، فإذا فعلت ما لا يرضي ضميري وديني فأنا لا أحاول التكفير عنه بدوام تذكره والتفكير فيه، كما يفعل النساك والزهاد؛ لأنني أعتقد أن ذلك ينغِّصُ عليَّ عيشي بلا مُبَرِّرٍ، بـل أحـاول إصلاحه إن أمكن، أو أفعل من الخير ما أظنه يكافئه.

وأنا أتردد - أو على الأقل أحاول التردد - عند فعل الشر، وأقدم - أو على الأقل أحاول الإقدام - على فعل الخير، فإذا غلبتني شهواتي وضعفي فلي رجاء في الله إيمان بعفوه وحلمه، ولي إيمان بالعمل المنتج، ولي أمل في الحيـاة والخـير، هذه صورة السعادة التي تتفق ووجداني، والتي أحاول أن أقرب منها في رجاء وتفاؤل.

سكت الصديق عندئذٍ، فقلت له: هل من المتيسر لي أن أستعيد نـسخة مـن هذه الصورة؟ قال: لِمَ لا؟

كما أن للدكتور مشرفة في هذا الخضم الأدبي الهائل؛ مناظرات على مستوًى عالٍ من الحوار والأدب الرصين مع أحمد أمين، وكذلك محمـد توفيـق ديـاب، بل ومع عباس العقاد وطه حسين، ونرى أحمد أمين ومشرفة في معركـة حاميـة الوطيس عن «مقام الإنسان في الكون» ردًّا عـلى «سـياحة في فـضاء العـالمين»؛

وهو فصل من كتاب لـ د. مشرفة بعنوان «مطالعات علمية» ردَّ عليه بقوله: تلك السياحة التي أعد لها مشرفة مَرْكَبًا من أشعة النور يسير بسرعة الضوء؛ فيقطع في الثانية ١٨٦٠٠٠ ميل، ويصل إلى الشمس في ثماني دقائق، ويقضي يومًا في السياحة حول المجموعة الشمسية، فإذا جاوز المجموعة الشمسية إلى أقرب نجم من مجموعة أخرى قطع المسافة بينهما في أربع سنين، وسوف يتاح لراكب هذا المركب أن يرى مجموعاتٍ من السُّدُمِ، وكل سَدِيمٍ مُؤَلَّفٌ من مئات آلاف الملايين من النجوم، بينها مسافات تقدر بعشرات السنين الضوئية، وسيرى أن محيط الكون يقدر بنحو سبعة آلاف مليون سنة ضوئية؛ أي أننا إذا أرسلنا شعاعًا من الضوء فإن هذا الشعاع يعود إلينا بعد سبعة آلاف مليون سنة، بعد أن يكون طاف حول الكون كما يطوف السائح حول الأرض، ويعود من حيث ابْتَدَأ. ويردُّ أحمد أمين على ما كتبه مشرفة قائلًا: قرأت هذا فرأيتني أملك خيرًا من هذه المطية وأسرع من هذا الضوء؛ وهو خيالي وفكري اللذان يستطيعان أن يرحلا إلى هذه العوالم في لحظة، ويطوفا حول الكون في لمحة، ومن أين لي بآلاف الملايين من السنين والعمر قصير والمدى طويل؟! إن أرضنا لا تساوي في هذه العوالم قطرة من البحار، وصدق الأثر: «إن دنيانا عند الله لا تزن جناح بعوضة».

ويتحدث أحمد أمين عن غرور الإنسان، فيقول: إن الإنسان لم ينظر إلا إلى أرضه ونفسه، وكان ينظر إلى النجوم كأنها حبات دُرٍّ لامعة، ولكنه يعود ليشعر بمكانة الإنسان الحقيقية بين العوالم الأخرى التي لم تسمع بإنسان؛ لأن الأرض أصغر من أن تُذْكَر بجانب ضخامة عوالمهم، وأحقر من أن تُعرَف حياتها لضخامة حياتهم.

ويقابل أحمد أمين في رحلته من أهل الأرض بعض الشعراء أمثال أبي العلاء المعري حائرًا يبحث عن سر النجوم:

يَا لَيْتَ شِعْرِي! وَهَلْ لَيْتٌ بِنَافِعَةٍ؟! مَاذَا وَرَاءَكَ؟ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فَلَكُ؟!
كَمْ خَاضَ فِي إِثْرِكَ الْأَقْوَامُ وَاخْتَلَفُوا قُدْمًا، فَمَا أَوْضَحُوا حَقًّا وَلَا تَرَكُوا
شَمْسٌ تَغِيبُ وَيَقْفُو إِثْرَهَا قَمَرٌ وَنُورُ صُبْحٍ يُوَافِي بَعْدَهُ حَلَكُ
طَحَنت طَحْنَ الرَّحَى مِنْ قَبْلِنَا أُمَمًا شَتَّى، وَلَمْ يَدْرِ خَلْقٌ أَيَّةً سَلَكُوا
رَامُوا سَرَائِرَ لِلرَّحْمَنِ حَجَّبَهَا مَا نَالَهُنَّ نَبِيٌّ لَا وَلَا مَلَكُ

ويواصل أحمد أمين رحلته؛ ليقابل بعضًا من شعراء الصوفية والأنبياء والفلكيين والمنجمين، الذين اخترقوا حجب الزمن إلى الأبدية في لا شيء، نجد كلًّا منهما يرفض أن يجرح الآخر، بل يدافع عن وجهة نظره بحيادية تامة، ويتفانى في توصيلها للعامة بأسلوب سهل بسيط.

ويرد مشرفة على أحمد أمين قائلًا: كان جميلًا وطبيعيًّا أن يلتقي الأستاذ في سفره بأبي العلاء! وكيف لا وهو صاحب (رسالة الغفران)، ومبدع الإسراء بالفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال؟! وهو القائل:

فَهَلِ الْكَوَاكِبُ مِثْلُنَا فِي دِينِنَا لَا يَتَّفِقْن فَهَائِدٌ أَوْ مُسْلِمُ؟
وَلَعَلَّ مَكَّةَ فِي السَّمَاءِ كَمَكَّةٍ وَبِهَا نَضَادِ ويذبلٌ ويلملمُ

ثم يعود فيلتمس العذر لأحمد أمين فيقول: كان طبيعيًّا وجميلًا أن يلتقي بابن الشبل البغدادي، وبشعراء الصوفية الذين أدركوا وحدة وجود الخلق والخالق، ووصلوا إلى أن قلب العَوَالِمِ ينبض، وروحها تختلج، ولعله لقي

الإمام الغزالي وسمع دفاعه في مشكلة الأنوار عن الحسين بن منصور الحلاج، ثم يعود فيقول: إنما يعنيني معنًى آخر ذكره الأستاذ وأفاض فيه، وكنت قد لمحت إليه، وأوجزت ذلك أنه رأى في صغر الحيز الذي يحل فيه الإنسان، بل الذي تحل فيه الكرة الأرضية وفي عظم الكون الذي يقدر محيطه بآلاف الملايين من السنين الضوئية، رأى في كل هذا ما جعله يستصغر شأن الأرض ويحتقر أمر الإنسان؛ فالأرض أصغر من أن تُذكَر بجانب العوالم الأخرى، والإنسان أحقر من أن تُعرَف حياته لضخامة حياتهم، وأخبار الحروب تافهة وحقيرة؛ لأن الإنسان الذي يقوم بها حقير، ومكان الحروب جزء من الأرض الحقيرة، وهَلُمَّ جَرًّا.. وأكثر من ذلك فحديث السعادة والشقاء والملذات والآلام والجمال والقبح لا يقع من النفس في قليل ولا كثير ولا يزيد في السمع عن طنين ذبابة.

مقام الإنسان في العالم وحقيقة مكانته

راح مشرفة يصول ويجول في هذه المعركة الأدبية، ويواصل حديثه بالبراهين والأدلة؛ فيقول: إن نسبة حجم الإنسان إلى حجم العالم تصلح لأن تكون تعريفًا جيِّدًا للصفر الرياضي، ومع ذلك ففي هذا الجرم المتناهي في الصغر أكبر معجزة في الكون بأسره.

ولم يقتصر مشرفة على سرد رأيه في تلك المباراة أو المعركة الأدبية، بل راح يسوق الأدلة والبراهين ويفرق بين عالمين – كما كانت المذاهب الفلسفية عند الإغريق تفرق بينهما – وهما: الميكروكوزموس؛ أي: العالم الأكبر والعالم الأصغر، فالميكرو هو الكون بفضائه وسماواته، وكوزموس هو الإنسان،

وهذان العالمان ليسا شيئين مختلفين، وإنما هما صورتان لشيء واحد، وكانوا يقولون بانطواء العالم الأكبر في العالم الأصغر، ومن ذلك قول أحدهم:

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تَشْعُرُ وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَتَسْتَنْكِرُ
وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى العَالَمُ الأَكْبَرُ

وعن اتِّحاد المذاهب بالفلسفة الصوفية والقول بوحدة الوجود، والذين يرون هذه الآراء لا يجدون في صغر حجم الإنسان ما يبعث على استصغاره؛ ذلك أن الإنسان في نظرهم لا ينخفض شأنه عن شأن العالم؛ لأنه هو العالم، فكيف ينخفض الشيء عنه؟!

أما باركلي الأسقف الإنجليزي، فكان له رأي فلسفي مشهور في هذا المقام؛ فهو يرى أن حقيقة الكون نفسية لا موضوعية، فوجود الكون إنما يقوم بالنفس، ولا معنى له بدونها، وانطلاقًا من هذا الرأي يكون وجود الإنسان ضروريًّا لوجود العالم، بل شرطًا لازمًا، ولا يكون هناك معنى لوجود العالم ما لم توجد النفس المدركة؛ وهي النفس البشرية.

ويصل مشرفة بأسانيده وحججه القوية في هذا الشأن قائلًا: ليس مقام الإنسان في نظري مرتكزًا على الأحجام والقوى، وليس يضيره في ملتي أن يكون ضئيل الجسد، وإذا كان العالم الذي نعيش فيه واسع الأرجاء رحب الفناء؛ فإنني لا أجد ذلك إلا مبعثًا للفخر وحافزًا للسمو بالنفس، وهل ينقص من قدر المرء أن ينتمي إلى مدينة عظيمة، أو يسكن في دار فسيحة؟!

وإنما ينبني مقام الإنسان على شيء آخر هو أبعد ما يكون من عظم الجرم وشدة البأس؛ فقد سكن الأرض في العصر الخالي ديناصورات ذات أجسام هائلة

كأنها الأطواد المتحركة، وكان لها من قوة عضلاتها ما جعل لها الغلبة على جميع الكائنات الحية التي عاشت على الأرض في زمانها، ومع ذلك فقد اندثرت هذه الوحوش الضارية، ولم يبقَ منها إلا بضعة هياكل عظمية متناثرة هي خير عبرة لمن يعتبر.

ويلم مشرفة أطراف المقال؛ ليخلص قائلًا: إنما يقوم مجد البشر على شيء آخر؛ هو ذلك القبس المقدس الذي نشعر جميعًا أنه يميز الإنسان على سائر الحيوانات، تلك القوة الروحية التي تحرك فينا حب الحق وحب الخير وحب الجمال، وعلى قدر استجابة البشر لذلك الداعي تأتي عظمتهم ورفعة شأنهم، وعندي أن ما حصل عليه الإنسان من العلم، وما ترتب على ذلك من قدرة واختراع إنما جاء على قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق، كما أن حب الحق وحب الخير إنما يتفرعان من حب الجمال.

ولكن مشرفة في نهاية تلك المعركة الأدبية يلوم أحمد أمين؛ لأنه لم يرَ في رحلته العلماء الَّذِينَ أدركوا الحق وعشقوه وهاموا به؛ مثل: إقليدس والحسن بن الهيثم ونيوتن، ولكنه رأى الفلكيين الذين لم يَرَوْا سوى المظاهر فحسبهم علماء، وما هم إلا جماعة من المقلِّدِينَ والمدَّعِين للعلم، وما أكثرهم في الأدب والعلم على السواء.

وهنا نجد أمامنا مثالًا يُحْتَذَى؛ فهم لا يختلفون على الغرض أو المقصد للوصول إلى المشاعر العظيمة في النفس الإنسانية، ولكنَّ كلًّا منهما راح يسوق أدلته التي يراها تبرهن على صدق وصحة نظريته، ولا خلاف على ذلك.

وكان مشرفة ينظر إلى ثقافتنا على أنها الثقافة الأصلية؛ التي لابد وأن نقف عندها طويلًا، فلماذا لا ننظر إلى نوابغ العرب والمسلمين، ونتعرف على سيرهم الذاتية؟! وكان يرى مشرفة يرددُّ في أحاديثه الإذاعية ومقالاته: من الخير للكلية أن تخرج عالمًا واحدًا كاملًا أفضل من أن تخرج أنصاف علماء.

وكان مشرفة أول مَن قام ببحوث علمية حول إيجاد مقياس للفراغ؛ فكانت هندسة الفراغ المبنية على نظرية أينشتين تعرض فقط حركة الجسيم المتحـرك في مجال الجاذبية، أما مشرفة فقد أضاف نظريات جديدة أضافت إلى شهرته إضافة كبيرة، بل حوَّلت أنظار العالم إليه – خصوصًا – نظرياته في الإشعاع والسرعة؛ فهي من أهم نظرياته، وكذلك تلك النظرية التي تفسر الحـرارة الـصادرة مـن أشعة الشمس؛ فهو يعتبر أن المادة إشعاع في أصلها، ويمكن اعتبارها صورتين لشيء واحد؛ يتحول أحدهما إلى الآخر، وقد مَهَّدَت هذه النظرية العـالم بـأسره ليحوِّل المواد الذرية إلى إشعاعات؛ ولذلك فقد كان مشرفة من أحد القلائل في العالم الذين توصلوا لسر تفتيت الذرة، وفي نفس الوقت حارب استخدامها في الحروب؛ فقد كان يسخر العلم من أجل بناء الإنسان لا فنائه، وكـان رائـدًا في إضافة الهيدروجين؛ لتصنع منه القنبلة، لكنه لم يحاول صناعتها، ولم يتمنَّ ذلـك على الإطلاق، ومن الملفت للنظر أنه بعد وفاته بسنوات قليلة صُـنِعَت القنبلـة الهيدروجينية في الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا.

"خير وسيلة لاتّقاء العَدُوِّ أن نكون قادرًا على
ردِّه بمثله"

د. مشرفة

أحاديث العلماء

يقول دكتور مشرفة من خلال أحاديث كان قد أدلى بها من خلال برنامج إذاعي شهير يسمى «أحاديث العلماء»: إِنَّنَا تُعْوِزُنَا العقلية العلمية في معالجتنا لكثير من أمور حياتنا؛ فالصعوبة لا تكمن فقط في اكتسابها، وإنما في أن نسير عليها نحو هذا الخط أو المنحى العلمي، ولا يكتفي العالم الفذ بالإشارة فقط، وإنما يحدد لنا أن العقلية العلمية لابد وأن تتميز بالخبرة المباشرة، والتفكير المنطقي الصحيح.

هناك بعض الأفكار التي نادى بها دكتور مشرفة، واعتبرها قضايا مهمة في حياته وحياة كل عالم؛ فالعالم من وجهة نظره لا يقتصر على العلم فقط، وإنما يجب أن يكون على علاقة وطيدة واتصال حقيقي بالحياة؛ فلا يجب على العالم أن يجعل مَن حوله يشعرون أنه يعيش في برج عاجٍ، فالأستاذ لابد أن يكون ذا أثر فعَّالٍ في توجيه الرأي العام – خصوصًا – في الأحداث الكبرى الجسام التي تعيشها وتمر بها البلاد، وتقع على عاتقه مهمة كبرى هي أن يحافظ على حرية الرأي عند المواطنين؛ فهؤلاء المواطنون هم الذين يشكِّلون المجتمع الذي نحيا فيه، وكثيرًا ما كان يطلق أسئلة لكل مَن يهمه الأمر في بعض الجوانب والقضايا التي كان يعتبرها قضايا مصيرية في حياة مصرنا العزيزة، فكثيرًا ما تساءل بصوت مسموع سواء من خلال لقاءاته أو أحاديثه العلمية: متى نهتم بثروتنا المعدنية المبعثرة في صحارينا؟ وكثيرًا ما كان يقول: تُرَى، هل سنبقى على حالنا؟!

لقد كان د. مشرفة دائمًا ما يؤيد قول الشاعر الذي يقول:

كَالْعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا ... وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

لقد كان مشرفة يرى أن أمل مصر في الصحراء الغنية بثرواتها المعدنية، وأشار إلى وجود اليورانيوم في الصحراء الغربية، وإذا كان النيل هو المصدر الأول لمصر ومواردها؛ فالصحراء هي المصدر الثاني الذي يجب أن نغتنم خيراته؛ ولهذا كان مشرفة يدعو باستمرار وبشدة إلى إقامة معهد علمي تجريبي لدراسة طبيعيات النيل، وكان يأمل أن يزود هذا المعهد بالمعامل؛ لتساعده وزملاءه على إجراء التجارب العلمية والمعملية بنجاح، وكان لمشرفة أمل كبير في الاستفادة من نهر النيل، وعلى هذا الأساس كان يدعو إلى إنشاء معهد علمي لإجراء التجارب العلمية والمعملية؛ فهو يرى أن أهمية النيل لا تقتصر على هندسة الري، بل يمكن أن تقام عليه العديد من المشروعات؛ كإقامة الجسور وشق الترع– خصوصًا – أن المشروعات الإنشائية قد امتدت؛ لتشمل المشاريع الإنشائية التي تهتم بتخزين مياه النيل، وتصريفها واستغلال طاقتها.

وتبنى مشرفة الدعوة لاستغلال مساقط النيل؛ لإنتاج الطاقة الكهربية، وينادي الحكومة ويستحثها ألا تترك مشروع خزان أسوان، وكان يبين أن استغلال النيل عند أسوان في استخراج الطاقة أمر منفصل تمامًا عن كل ما أعلنه رجال السياسة في ذلك الوقت من تعلية الخزان.

وقد شارك دكتور مشرفة في اتحاد الجامعة، وعمل على إرساء تقاليده وتنشيطه، وظل عضوًا بارزًا في هذا الاتحاد إلى أن اخْتِيرَ وكيلًا له، ثم تولَّى بعد ذلك الرئاسة؛ فكون منه برلمانًا يضم الصفوة من أساتذة الجامعة وطلابها،

كما ضرب لهم مثلًا في طريقة عرض المشروعات ومناقشتها، فكان يعطي مؤيدي الرأي الفرصة للإدلاء بآرائهم، ثم يعطي الفرصة ذاتها للمعارضة لتقول رأيها، وفي النهاية يتم اختيار الآراء الصالحة للصالح العام في ظل رأي الجميع، وفي ظل الرأي والرأي الآخر.

لقد آمن العالم مشرفة صاحب النظريات العلمية في الإشعاع والكم والإشعاع الصادر من أشعة الشمس، بأن العلم في خدمة الإنسان دائمًا، وعندما حاوره البعض في الأحاديث الإذاعية والصحفية كان يقول لهم: إنني مؤمن بأن العلم في خدمة الإنسان.

وراح بعض مقدِّمِي البرنامج يسألونه: ما خير وسيلة لاتقاء العدو يا دكتور مشرفة؟ فكانت إجابته: إن خير وسيلة لاتِّقَاءِ العَدُوِّ أن تكون قادرًا على ردِّه بمثله.

ولم يكن من مقدمي البرنامج إلا أنهم حاولوا الاستفسار منه عن الكيفية ومعناها؛ فقال لهم: إن المقدرة العلمية والفنية قد صارتا كل شيء. وسأله بعضهم: دكتور مشرفة، ماذا يحدث لو أن الألمان توصلوا لصنع القنبلة قبل الحلفاء؟ ابتسم العالم مشرفة، وفي ثقة بالغة وبساطة متناهية أجاب: كانت نتيجة الحرب ستتغير.

وَلَاحَقَهُ مُقَدِّمُ الْبرْنَامَج بسؤال: وماذا تعتبرون العلم أو كيف تنظرون إليه؟ أجابه: أعتبره تنويرًا علميًّا للأمة يعتمد عليه المواطن المدني والحربي معًا.

مشرفة.. عاشق البحث العلمي

كتلة من النشاط والحماس والتفاعل والفاعلية، عندما يتحمس لقضية من القضايا ينفعل بها ويتفاعل معها، بل ويستميت في الدفاع عنها مهما كلفه من عناء وجهد؛ فقد عاد من بعثته من الخارج متحمسًا أن يغير العديد

من الأوضاع، ويدعو الأغنياء إلى الإنفاق لمساندة البحث العلمي للنهوض به في مصر، وانطلق في غمرة حماسه يقول: اجعلوا للبحث العلمي في مصر نصيبًا من جودكم وعطفكم واغمروه بالجاه. وراح ينقل حماسه إليهم؛ لتستشري حمى الحماسة في الجميع بقوله: أمصر التي هي أول الأمم في العمران وأعرقها في المدنية، مصر التي يعترف أكثر علماء الغرب اليوم بأنها منشأ حضارات العالم بأسره، أنرضى بأن تكون تبعًا يُخلع عليها ولا تخلع على غيرها؟! هبوا إلى نصرة وطنكم ولغتكم؛ فاخلعوا على جامعتنا الحديثة من فضلكم وسخائكم، على أن يخصص ما تهبونه للبحث العلمي، فتكونوا بذلك قد برهنتم على كفاية مصر بأسرها، وخلدتم ذكركم على مر الدهور وتتابع العصور.

ويعود بنا الزمان حتى أجدني بعد مرور كل هذه العقود أكرر كلام مشرفة وأقوله لكل المصريين؛ حتى يَهُبُّوا من رقادهم، ويهتموا بالعلم الذي هو سلاحهم أمسِ واليومَ وغدًا، ما زلنا نقف من العلم موقف الخائف أن يقترب، ودائمًا لا نأخذ من المدنية الحديثة سوى القشور، ونهتم بالمظهر وليس الجوهر، ونسير وراء أوهام لا تقدم ولا تؤخر، فأصبحنا أمة استهلاكية لا تملك قوت يومها؛ فكل شيء نستورده، فلماذا لا نستورد العلم على أصوله وننتفع به؟!

لقد آمن مشرفة أن العلم سر الحياة؛ ولهذا حاول أن يطوِّع العلم ويبسطه للعامة قبل المثقفين؛ ففي كتابه «العلم والحياة» يرى أن العلم ضرورة من ضرورات الحياة، فالعلم يصور الحياة تصويرًا صحيحًا، أساسه الواقع والمنطق السليم، والعلماء إذا حكموا على الحياة، جاء حكمهم صادقًا قويًا لا يختلف فيه اثنان، والناس إذا نظروا إلى الحياة نظرة علمية أراحوا أنفسهم من شرور أهوائهم ونزوات نفوسهم، واتفقوا في تصوُّرِهم للحياة وفي حكمهم عليها،

فحلَّ التعاون محل التنابذ والتطاحن، وراحوا يسعَوْنَ للخير المشترك بدلًا من السعاية في الكيد والشر.

ومشرفة رجل يؤمن بأهمية العقول، وخاصة العقول الراجحة؛ لأن البلاد في أمسِّ الحاجة إليها حتى تبعد النفوس عن الهوى، فنجده يقول لنا: العقول الراجحة تزن الأمور بميزان الحقيقة، فلا تجزم إلا بعد التثبت، ولا تقطع بأمر إلا بعد الاستقصاء، فإذا لم تكن الأدلة كافية فالحكم معلق، والأمر مازال قيد البحث، أما العقول الطفيفة فتسرع في الحكم، وتعتمد على أوهى الأدلة، وتبني النتائج على غير مقدمات، وتصور الحياة تصويرًا بعيدًا عن الحياة، فإذا صادفت الأمور هوى في النفس جنحت إلى الهوى، وحادت عن السبيل، واعتمدت على الشهوة و الغريزة، وما أخطر ذلك على المجتمع، وما أفتكه بالنفس والغير على حد سواء!

سلبيات العلماء

كان مشرفة يشرِّح كل شريحة اجتماعية وكل شيء في المجتمع، بمشرط طبيب جراح يعي ويفهم كل ما يحدث حوله فهمًا دقيقًا، فهو لا يحصر نفسه في المعامل، وإنما هو كالفراشة التي تحلِّق بين الزروع والزهور؛ فتمتص الرحيق ليخرج لنا عسلًا شهيًّا، هكذا كان مشرفة شاعرًا رومانسيًّا وأستاذًا جامعيًّا وباحثًا علميًّا ورجلًا واقعيًّا في حياته وعلمه، ولم يؤمن بأن هناك مستحيلًا؛ لأنه كان يضع يده على الجرح، ويحاول معالجته بالرغم من الألم الذي قد يسببه، وكان يصارح العلماء من أبناء جيله وتلامذته حتى الأجيال التي ستأتي من بعده؛ فهو دائمًا يسير بمنطق متزن الإيجابيات والسلبيات؛ حتى يعرف كل عالم أين يقف، وكذلك كان يعمل

على ربط العالم بالواقع من خلال الإنسان المواطن العادي غير المتخصص؛ فكثيرًا ما كان يناشد العلماء قائلًا: عليكم بتبسيط كل جديد للمواطن العادي؛ من أجل أن يكون على بيِّنةٍ وإحاطة كاملة بما يحدث في المجتمع من حوله.

ولكنه يعود فينتقدهم ويبيِّن سلبياتِهم قائلًا: إنني أرى أنه من الأمور التي تؤخذ على العلماء أنهم لا يحسنون صناعة الكلام، ذلك أنهم يَتَوَخون - عادةً - الدقة في اللغة والتعبير، ويفضلون أن يبتعدوا عن طرائق البديع والبيان، إلا أن العلوم إذا فُهِمَت على حقيقتها، فليست في حاجة إلى ثوب من زخرف القول ليكسبها رونقًا، فالعلوم لها سحرها، وقصة العلم قصة رائعة تأخذ بمجامع القلوب؛ لأنها قصة واقعية ليست من نسج الخيال، ولما كان مشرفة يسعى وينشد البساطة في عرض العلم بأسلوب بسيط شيق جذاب للقارئ العادي؛ فقد وضع بين أيدينا عدة كتب تميزت بالبساطة والسلاسة، منها: نحن والعلم والهندسة الوصفية عام ١٩٣٧م، والميكانيكا العلمية والنظرية عام ١٩٣٧م، كما ألف كتابًا عن النظرية النسبية والهندسة المستوية والفراغية عام ١٩٤٣م، وعن الهندسة وحساب المثلثات المستوية ١٩٤٤م، والذرة والقنابل الذرية عام ١٩٤٥م، ومطالعات عامية ١٩٤٥م، والعلوم والحياة عام ١٩٤٦م.

حياتنا ونظرة مختلفة

حياتنا التي نحياها واحدة، لكن الناس يختلفون بالرغم من أن مصدرهم واحد، ولقد نظر إليها د. مشرفة نظرة فلسفية علمية تتسم بالموضوعية والتحليل الدقيق، فيقول لنا: يختلف الناس في تصورهم للحياة، كل يصورها لنفسه في شكل خاص، ولو أتيح لواحد منا أن يطلع على هذه الصورة المرسومة في أذهان

الناس عن الحياة – أو عما يتخيلون أنه الحياة – لعجب أشد العجب من تضارب ألوانها وتنافر معالمها، ولا أنكر أن تكون هذه الصور مستمدة من حقيقة خارجية واحدة، وكيف يصدق أن هذه الصور الذهنية تمثل شيئًا واحدًا هو الحياة، وهو لا يكاد يلحظ بينها عنصرًا مشتركًا؟ والغريب في أمر هذه الصور التي يزعم الناس لأنفسهم أنها تمثل الحياة هو تمسك كلٍّ منهم بصورته الخاصة، وإنكاره على غيره كل خلاف أو معارضة.

ويعود د. مشرفة فيقول في موضع آخر يبين وجهة نظره في الموضوع ذاته: والناس إذ يتصورون الحياة يقنعون بما يتراءى ويؤمنون به، ثم يبنون حكمهم على الأمور على هذا التصور، والحكم على الأشياء فرع من تصورها؛ فلا عجب أن تجيء أحكام الناس متعارضة متناقضة، ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان هيِّنًا، ولكن الناس يبنون أعمالهم على حكمهم على الأمور، فَيَسْعَوْن إلى ما يحكمون بأنه الخير، ويحاربون ما يظنون أنه الشر، ومن هنا ينشأ الاصطدام بين الأفراد والجماعات.

صدامات وصور متباينة

عن أسباب الصدامات في الصور المتباينة للأمور لدى الناس يقول د. مشرفة: ولاشك أن أساس الاصطدامات هو ذلك التفاوت في تصور الناس لأمور الحياة؛ فالتنافر يؤدي إلى النفور، والنفور يؤدي إلى القطيعة والكيد والتقاتل والحروب. وإذا نحن أمعنا النظر في الطريقة التي يُكَوِّنُ بها الناس آراءهم في الحياة، وجدناها تنطوي على كثير من عدم التبصر؛ فالناس لا يكلفون أنفسهم عناءً كبيرًا في تصور الحياة وتخيلها، وهم يبدون استعدادًا

مدهشًا لتصديق ما لا يجوز تصديقه، وتصور ما لا ينبغي تصوره، وكأنها آلَوْا على أنفسهم ألا يبذلوا جُهْدًا، وألا يُحَمِّلُوا أنفسهم مشقة أو عناءً، والكثرة العظمى من الناس في جهل مطبق بحقائق الحياة، ومع ذلك فهم راضون عن أنفسهم مدافعون عن أوهامهم وجهلهم، وإن بعضهم ليتحمس للجهالة ويضحي بنفسه في سبيلها، وآية ذلك أن جهالة الجاهل جزء من شخصيته؛ فهو يجد في الدفاع عنها دفاعًا عن نفسه وعن حياته.

"لن أبقَى في أيِّ حزب من الأحزاب أكثر من
يوم واحد ؛ لأنني لن أسكت يومًا عن خطأ ؛
ولذلك سيكون مصيري الطرد"

د. مشرفة

حياة مشرفة السياسية والاجتماعية

مشرفة والأحزاب

تعود البداية الحقيقية لنشأة الأحزاب المصرية لعام ١٩٠٧م، حين تم إنشاء الحزب الوطني على يد الزعيم المصري مصطفى كامل؛ والذي كان دافعًا إلى نشأة أحزاب أخرى، جاءت لتشاركه في قضية التحرير الوطني، مثل: حزب الأمة؛ والذي أسسه أحمد لطفي السيد.

ثم ظهر حزب الوفد كحركة شعبية في بادئ الأمر، وكانت تهدف إلى تأييد المجموعة المصرية التي تم اختيارها كممثلين عن الشعب المصري للتفاوض مع المحتل؛ من أجل تحقيق الجلاء.

ثم توالى بعد ذلك تكوين عشرات الأحزاب الصغيرة؛ والتي جاء معظمها كانشقاقات عن أحزاب رئيسة، ولم يكن يعدو أغلب هذه الأحزاب عن كونه صحيفة ورئيس حزب، ثم يتوقف عمل الحزب، ومن هذه الأحزاب حزب الإصلاح الذي أسسه الشيخ علي يوسف وجريدته المؤيد، وحزب النبلاء، والحزب الدستوري، والحزب الوطني الحر، والحزب المصري، كما كانت أحزاب الكتلة السعدية والأحرار الدستوريين وغيرها من الأحزاب المنشقة عن حزب الوفد.

في ذلك الجو السياسي، ومع كثرة الأحزاب السياسية في البلاد واتجاه كل منها، كان مشرفة لا يدين بالولاء لأي حزب، بالرغم من أن العالم مشرفة

لم يكن يولي اهتمامه للعلم فقط، بل كان يهتم بالسياسة والأحداث التي تمر بها البلاد؛ فتؤثر فيها وتتأثر بها، إلا أنه لم ينضمَّ يومًا لحزب سياسي؛ فقد كان يؤمن أنه يجب أن يكون حرًّا غير مقيد أو مدين بالولاء لأي حزب سياسي، بالرغم من توالي العروض السياسية عليه من الأحزاب المختلفة؛ فكان كل حزب يتمنى أن يفوز بمشرفة، وبالرغم من الصداقات الحميمة التي كانت تجمع بينه وبين رؤساء تلك الأحزاب إلا أنه عندما سُئِل عن عدم انتمائه لأي حزب قال للنقراشي باشا: إنني لن أبقَى في أي حزب من الأحزاب أكثر من يوم واحد؛ لأنني لن أسكت يومًا عن خطأ، ولذلك سيكون مصيري الطرد.

وأمام هذا الموقف السياسي الصريح والنزيه من قِبل مشرفة، لم يملك الزعماء في ذلك الوقت إلا احترام وجهة نظره واتجاهه الذي يخلو من الرياء والنفاق؛ فقد كان واضحًا منذ البداية لا يبغي أي مصلحة سوى مصلحة بلاده.

"القيود القومية والفواصل الجنسية ما هي
إلا حبال الشيطان، يبث بها العداوة
والبغضاء بين القلوب المتآلفة"

د. مشرفة

زواج مشرفة

أعد مشرفة نفسه لحضور مؤتمر الرياضيات في زيوريخ، وكان ذلك في صيف ١٩٣٢م، وأثناء الإعداد لسفره للمؤتمر تعرف على الآنسة «دَوْلَت»، ولفت نظره خلقها وأدبها وثقافتها الواسعة، وشاءت الأقدار أن يعقد العالم مشرفة عقد زواجه على متن الباخرة التي سافر عليها لحضور المؤتمر، وتوَّجَت العنايةُ الإِلَهِيَّة التزامه الديني والأخلاقي الذي جُبِل عليه منذ طفولته بإرشاده لزوجة صالحة هي السيدة دولت بنت حسن باشا زايد، وكان عقد القران في ٣/ ١/ ١٩٣٢م، أما الزفاف فكان في ٢٠/ ٦/ ١٩٣٢م.

عاش مشرفة مع زوجته دولت حياة هانئة سعيدة يسودها الهدوء والاستقرار العائلي؛ فقد كان مشرفة من ذلك الطراز من الرجال، الذين يقدسون الحياة العائلية؛ فهي بمثابة السكن والراحة لمن يعيش في مثل ظروفه وانشغاله بالعلم، ولم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يَحْيَوْن حياة الشباب بما فيها من أخطاء عائلية؛ فقد عاش ملتزمًا بكل القيم والأعراف، تطن في أذنيه كلمات والده، ويحمل مصحفًا صغيرًا في جيبه دائمًا.

أنعم الله على مشرفة بأربعة أولاد؛ ابنين وابنتين، أما ابنه الأكبر فاسمه مصطفى، وُلد في ٢٨/ ٦/ ١٩٣٦م، وتخرج بعد ذلك في كلية الهندسة بجامعة القاهرة، واختير لبعثة تصميم وصناعة الأجهزة العلمية بالمركز القومي للبحوث، وحصل على درجة الماجستير ١٩٦١م، ثم حصل على درجة الدكتوراه في الهندسة الطبية ١٩٦٤م من جامعة مينسوتا الأمريكية، وتولى

منصب رئيس مجلس إدارة شركة صناعة أجهزة تنظيم ضربات القلب في مينسوتا، وأما ابنه الثاني منير فلم يعش طويلًا؛ فقد أراد الله لمشرفة أن يفقد طفله الصغير بعد تسعة أشهر من مولده، وكان لذلك أثره عليه؛ إذ جدد أحزانه، ولكنه كان دائمًا مؤمنًا بقضاء الله وقدره، يتقبل كل شيء بنفس راضية؛ لأنها مشيئة إلهية، وقد أظهر هذا الموقف رقة مشاعره ونفسه الفياضة بالحب والحنان، فعندما مات لأخته ولد صغير كان ينكر عليها حزنها، ولما فجع بعد ذلك بابنه منير بسنوات تأثرت نفسه، فذهب إلى أخته يعتذر لها عما قاله لها، والذي لم يكن إلا بغرض التخفيف عنها في مصابها الشديد.

كما أنجب ابنتين، هما: نادية التي حصلت على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة في العشرين من عمرها، وذلك بعد زواجها، وقد توفيت في السنوات الأخيرة، وابنته الثانية سلوى التي دخلت الكلية التي أحبها والدها وأفنى عمره فيها؛ كلية العلوم، وحصلت على بكالوريوس العلوم في قسم الكيمياء من جامعة القاهرة، وكأنها حاولت أن تمشي على خطى والدها، وعملت فيما بعد بالمركز القومي للبحوث العلمية.

"دكتور مشرفة رجل أثر في كفاحنا القومي ضد النفوذ الأجنبي، فقد عجَّل ظهور مواهبه بتحرير الإرادة المصرية في مجال العلوم من السيطرة الأجنبية"

كلمات للأستاذ الدكتور

أديب عبد الله

مشرفة وجهوده العلمية

أينشتين العرب وعلاقته بأينشتين الغرب

كان من عادة مشرفة أن يسافر في الصيف من كل عام إلى أوربَّا؛ حيث يلتقي زملاءه وأساتذته من علماء بريطانيا، أو الذين وفدوا مثله لقضاء الصيف فيها، وكان لقاؤه بأينشتين في واحدة من هذه الزيارات، وكانت فترة الصيف فرصة له لمتابعة كل جديد في تخصصه العلمي، ومن ناحية أخرى فرصة لاستقدام الأساتذة الزائرين لكليته، وكانت فرصة عظيمة ليمثل مصر في المؤتمر الأول لتاريخ العلوم الذي عُقِدَ في لندن، واختارت الحكومة الأمريكية د. مشرفة عضوًا في اللجنة الدولية للأبحاث الذرية، ومن ثَمَّ دعته جامعة برنستون كأستاذ زائر لإلقاء سلسلة من المحاضرات عن الذرة، وجامعة برنستون تضم عددًا كبيرًا من أساتذة علوم الرياضيات والطبيعة والذرة، على رأسهم: أينشتين وليذربلاك ويوجين، وهم العمد الرئيسة الثلاثة في مشروع «مانهاتن الذرة» الذي أقامه أيزنهاور عام ١٩٣٩م؛ فحقق أكثر من أمله عندما قدم القنبلة الذرية التي لم تطوع الذرة - فحسب - وإنَّما طَوَّعَت العالم بأسره، وأَنْهَت الحرب العالمية الثانية.

ذهاب مشرفة إلى جامعة برنستون والفرصة الذهبية

كان ذهاب د. مشرفة إلى برنستون فرصة ذهبية، تمكنه من العطاء الفياض في مجال الأبحاث الذرية المتقدمة، مُشْرِكًا اسم مصر في أخطر الإنجازات العلمية، وكان د. مشرفة على اتصال دائم كل يوم ببحوثه العلمية؛ فاستطاع

أن يواصل ما بدأ من بحث جادٍّ، ظهرت نتائجه في البحوث التي نشرها في الدوريات العالمية سنة ١٩٢٩م عن حركة الإلكترون كظاهرة موجبة، وعن ميكانيكية الموجات والمفهوم المزدوج للمادة والإشعاع، ولم يكن هذا إلا تمهيدًا للبحث اللامع الذي نشره مشرفة سنة ١٩٣٢م؛ فانتشرت معه سمعته في جميع الأوساط، وصار ذكره مع كل لسان، وهذا البحث بعنوان: هل يمكن اعتبار الإشعاع والمادة صورتين لحالة كونية واحدة؟

تقديم مشرفة أبحاثًا عن العلاقة بين المادة والإشعاع

في عام ١٩٣٤م قدم د. مشرفة بحثًا آخر، أبان به عن بعض العلاقات بين المادة والإشعاع في ضوء المفهوم الجديد الذي أضافه للعلم. وفي عام ١٩٣٧م أجرى د. مشرفة بحثه المشهور على السلم الموسيقي المصري، ونشره في مجلة الجمعية المصرية للعلوم، ثم نشر بحثًا عن معادلة مكسويل والسرعة المتغيرة للضوء، وفي عام ١٩٤٢م أخذت بحوث د. مشرفة اتجاهًا آخر نحو مبادئ اللانهاية وخطوط الطول والعرض وسطوح الموجات المتعلقة بها.

وفي عام ١٩٤٤م قدم بحث التحويلات المخروطية، وفي عام ١٩٤٥م قدم بحثًا عن معادلة حركة جزيء متحرك، وفي عام ١٩٤٨م قدم بحثًا عن النقص في كتلة نواة الذرة.

وكان د. مشرفة يحرص على أن يلتقي أينشتين، وفي عام ١٩٢٥م جاء أينشتين بفكره لا بجسده؛ وهي تلك الأفكار التي حملها علماء مصريون عائدون من بعثات تعليمية في الخارج، علماء أُعجِبُوا بأفكاره غير التقليدية وأرادوا نشرها في مصر، ومن أبرز هؤلاء العلماء الدكتور مشرفة؛ الذي قال عنه

أينشتين: إنه عقلية فذة. وطلب منه زيارته في أمريكا، غير أن المرض لم يسمح لمشرفة بإتمام الزيارة.

في السطور التالية ستتعرف على رحلة أينشتين إلى مصر؛ فقد عرف المصريون أينشتين مع بداية إنشاء الجامعة المصرية وبالتحديد عام ١٩٢٥م، عندما أُنشئت أول كلية للعلوم في مصر، هذا ما أكده الدكتور أحمد فؤاد باشا الأستاذ بكلية العلوم، مضيفًا أن هيئة التدريس في ذات الوقت كانت من الأساتذة الأجانب، ومِن ثَمَّ فكان من الطبيعي أن نتعرف على أينشتين عن طريقهم، وأثناء هذا التحق مشرفة بكلية العلوم، وقد تأثر بنظريات أينشتين.

وقد دعا العالم الألماني ألبرت أينشتين مشرفة؛ ليشارك في أبحاث تتعلق بالذرة، وكان ذلك في عام ١٩٤٥م؛ بحيث يعمل كأستاذ زائر لمدة عام، ولكن مشرفة كان يرى أن عليه واجبًا مقدسًا تجاه بلاده، وعلى عاتقه يقع عبء ومسؤولية تعليم أجيال جديدة؛ فرفض هذا العرض المغري الذي يتمناه أي أستاذ جامعي، وقال له: في بلدي جيل يحتاج إليَّ.

من أجل هذه العبارة، ومن أجل عبقرية وإبداع د. مشرفة دفع حياته ثمنًا غاليًا للعلم، ومات مشرفة مسمومًا، فموته وموت مجموعة من العلماء النابغين يأتي ضمن سلسلة القضاء على عقول نابغة؛ عقول الأمة العربية؛ لتظل بلا عقول، وهذا هو حال كل مَن حاول التصدي أو الوقوف في وجه الوحش الكاسر العدو اللدود للشرق وحضارته، فهم يَخْشَوْنَ التنوير هنا في أرض الشرق، ويتمنون ألا تشرق شمس الحرية أبدًا على تلك الأرض التي خرجت منها العلوم والحضارات، وكانت مهبِطًا للأديان وحماية للسيد المسيح وأمه عليهما السلام من التعذيب والطغيان.

مشرفة وعلاقته بالقصر

ماذا كان موقف د. مشرفة من الملك فاروق؟ كانت مواقف الدكتور مشرفة جميعها مُشَرِّفَةً، فقد عُرِفَ عنه الالتزام وعدم المجاملة أو الانصياع لأمر من الأمور؛ حتى ولو كان على حسابه، وكثيرًا ما دفع ثمنًا غاليًا لمواقفه الصلبة والتي تتسم بالجرأة وعدم المداراة، فهو كالسيف في الحق، وله مواقف تدل على هذا، فعندما اختارته جامعة برنستون الأمريكية عضوًا في اللجنة الذرية، ودعته أستاذًا زائرًا لإلقاء سلسلة من المحاضرات عن الذرة، أمام هذه الجامعة التي تضم أكبر أساتذة الرياضة في العالم، وعلى رأسهم ألبرت أينشتين، تُرَى ماذا حدث؟

كان موقف القصر غريبًا للغاية؛ فقد أصدر الملك فاروق أمرًا بمنعه من السفر، وهو في الطائرة، ولكنه كما بدا واضحًا ظل كالصفحة الناصعة البياض لا تلوثها الأيدي البغيضة، فلم يَحِدْ يومًا عن الحق، ولم يصمت مشرفة، ولم يقف الملك مكتوف الأيدي؛ فقد تعرض مشرفة لعدة مضايقات من السراي؛ بسبب انتقاده للتصرفات العابثة الماجنة للسراي، وكان لتلك المواقف الجريئة أثرها البالغ على مشرفة؛ فقد أُبعِد عن كرسي وكالة الجامعة.

لم يكن موقف القصر في جامعة برنستون الأمريكية أول المواقف أو آخرها، ولكن تكرر هذا التصرف الذي يتسم بالحمق وعدم التقدير لإنسان بحجم مشرفة، بل هو إهدار لحقوق الإنسانية بأسرها، فعندما مرض الدكتور مشرفة في سويسرا كان محتاجًا للمال؛ ليستكمل به علاجه، فإذ بالملك يرفض السماح لأسرة مشرفة لتحويل بعض ماله الخاص من أجل علاجه! وتكررت المواقف وتكرر الصدام مع القصر، وتركت هذه المعاملة القاسية جراحًا عميقة لا تندمل في نفس العالِم الذي أفنى حياته من أجل بلده مصر.

قام د. مشرفة بتشكيل جماعة تحت اسم «شباب مصر»، ضمت عددًا كبيرًا من المثقفين والعلماء والطلاب، وكان من أهم أهدافها إقصاء فاروق عن الحكم، ووصلت أخبارها إلى القصر الملكي، وذاع أمر هذه الجماعة، وباتت ظروف وفاة د. مشرفة إما على يد مندوب من الملك فاروق أو على يد الصهيونية العالمية.

مشرفة باشا رغم أنف السراي!

كان لمشرفة طموح في أن يتولى منصب مدير الجامعة، وكان الطريق العلمي الذي اختطه لنفسه مؤديًا به إلى ذلك المنصب لا ريب، خاصة أنه تولاه فترة من الزمن على سبيل النيابة، غير أن حرمان مشرفة من هذا المنصب، لم يكن إلا خطوة من خطوات طريق آخر رسمته السراي الملكية، للقضاء على مشرفة؛ وذلك أن مشرفة كان وكيلًا للجامعة حين كان علي باشا إبراهيم مديرًا للجامعة، فلما مرض - رحمه الله - قام مشرفة بأعمال المدير بكفاءة واقتدار، ومُنِح في أثناء ذلك الباشاوية في ١١ من فبراير ١٩٤٦م، وكان من المقرر أن يزور الملك عبد العزيز آل سعود الجامعة المصرية ضمن معالم مصر التي سيزورها، ولم يكن أمام السراي إلا أن تمنح رأس الجامعة الذي وقف خطيبًا في استقبال عاهل السعودية رتبة الباشاوية، وهكذا شاء الله لمشرفة أن يكون باشا رغم أنف السراي.

ولم يتلقَّ مشرفة نبأ منحه الباشاوية بالسعادة التي يتلقى بها الباشاوات هذا النبأ، ولم يكن في ذلك إلا صورةً أخرى من مشرفة الذي لم يسعد بالبكوية ١٩٣٦م،

وما كان منه إلا أن يستقل القطار عائدًا من الصعيد بعد قضاء إجازة نصف العام؛ ففوجئ بطلبته يهرولون إليه يهنِّئُونه بالباشاوية وهو جالس في مقعده من القطار، ولم يكن قد قرأ صحف الصباح التي حملت النبأ.

لما وصل مشرفة إلى القاهرة وخرج إلى رصيف المحطة استقبله أخوه الدكتور عطية، وسلَّم عليه وهنَّأه بالباشاوية، فغضب مشرفة من أخيه لذلك، ولما استقر به المقام في الجامعة كانت تتوافد عليه الجموع مُهَنِّئَةً، وهو يستنكر عليهم أن يهنِّئُوا الدكتور بالباشاوية، وكأن الباشاوية أعظم من الدكتوراه!

ولم يذهب مشرفة إلى السراي؛ ليقدم الشكر على الإنعام الملكي، وبذلك أضاف مشرفة إلى قائمته السوداء مع السراي قائمةً جديدةً، ومما زاد الطين بِلَّةً ازدياد انتقاده للملك.

ثم صدر قرار بتعيين الدكتور إبراهيم شوقي مديرًا للجامعة، وكان عميدًا لكلية الطب، علاوة على ذلك فهو أحدث منه في الأستاذية والعمادة، فهو أقدم العمداء، وكان لهذا القرار أسوأ الأثر على نفسه، وما إن انتصف العام الدراسي حتى صدر قرار آخر بإبعاد مشرفة عن كرسي وكالة الجامعة.

كل هذه الطعنات المتوالية كان لها أبلغ الأثر في مرضه، ولكنه كان عنيدًا كالحجر صُلْبًا كالفولاذ لا يلين ولا يرضخ، ولم يسلم سلاحه أبدًا.

لقد أعطى مشرفة في كل مجال، أما المضايقات التي تعرض لها في الجامعة فكانت تعكس له وللجميع تعنت السراي ضده، وكان يندد بما يفعله الملك، مما جعل الملك يرفض سفره إلى أمريكا وهو على متن الطائرة.

محكمة

رحت أغوص في بحر علم مشرفة الذي لا يركن إلى شاطئ؛ فهو غواص ماهر مغامر لا يعبأ بالراحة على الشطّ ولا يسعى إليها، ولكنه طوال الوقت يقاوم ويجاهد ويسبح ضد التيار، وبالرغم من أني لست بالغواص الذي يستطيع أن يسبح جنبًا إلى جنب مع مشرفة، فإنني وجدتني أغوص في الأعماق، وأصل إلى لآلئ لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق السباحين المهرة؛ فسبحت معه وسط دوامات كثيرة، وكتمت أنفاسي أحيانًا، ووجدت جُزُرًا بعيدة لكنها ليست منعزلة وينابيع عذبة وسط المياه شديدة الملوحة، وجدت نفسي وسط هذا الخضم الهائل أبحث عنه، ووجدتني وسط قاعة في محكمة، أقف أمام هيئة المحكمة التي انقسمت على نفسها ما بين مؤيد ومعارض، أما مَن يجلسون على مقاعدهم يشجعون فربما لا يعرفونه، وربما يتجاهلونه لمصالح شخصية، ولكنني توحَّدْتُ معه ومع أفكاره وطموحه الذي لا حدود له، ووجدت صديقه طه حسين عميد الأدب العربي يقف حزينًا مغتمًّا، وقد أمسك بجهاز صغير، وراح يسترجع اللحظات الأخيرة من عمر مشرفة بالصوت والصورة وهو يودِّع الأصدقاء، تساءلت فيما بيني وبين نفسي: تُرى، هل يمكننا استرجاع اللحظات الماضية ورؤية مَن نحب؟

وكأن العملاق طه حسين يسمعني بالرغم من أنني لم أسمع ما قلته، ورأيت ما أذهلني؛ لقد خيم الليل، في حين أخذ النهار ينقضي جارًّا أذياله الخائبة، وعندما أقبل الليل مرسلًا ظلمته القاتمة، دق جرس التليفون في منزل الدكتور طه حسين؛ فأسرع ليرد على التليفون، وكان الدكتور مشرفة هو الطرف الآخر، يأتي صوته ضعيفًا كما لو أنك تسمع صوته يأتي من نافذة قطار يتحرك، وكان الصوت يتناقص شيئًا فشيئًا.

حيَّاه د. مشرفة وأجابه د. طه حسين، وسأله عن التغيير في صوته، فقال له: إني مريض، والمرض هو الذي أخَّرَنِي عن زيارتك، ولكني أرجو الله أن أتماثل للشفاء، وأخرج غدًا أو بعد غدٍ ثم أزورك؛ فلديَّ حديث طويل لا ينقطع معك. أجابه طه حسين: اسمع يا مشرفة، لا تتعجلْ في الخروج حتى تتماثل للشفاء تمامًا؛ فإن خروج المرضى قبل أن يتم البرء خطر بغيض.

وإلى هنا يتوقف الجهاز، ولم تعد تظهر صورة مشرفة، ويظهر طه حسين وهو يبكي بكاء شديدًا، وهو يقول: كيف أصبح فأسمع نعيك يأتي من بعيد فيصعقني، كما جاءتني أمس تحيتك من بعيد فملأت قلبي حبًّا وحنانًا وذكرًا، ثم نسعى فنشيع جنازتك ذاهلين، وتسعى أقدامنا وتتحرك أجسامنا ولا تصدق عقولنا وتمضي الأيام ونفتقدك؟!

يصمت طه حسين قليلًا، ثم يعود فيقول وهو متأثر إلى حدٍّ كبير: لم يكذب النعي إذًا، ولم نكن حالمين حينما شيعنا جنازتك في ضحى يوم من الأيام، حقٌّ إذًا أن مصر فقدتك، وأن أصدقاءك فقدوك، وأن كليَّتك فقدتك، وأن جامعتك فقدتك، وأن العلم فقدك أيضًا، كل هذا حق، ليس في هذا كله شيء من الغرابة؛ فإن الموت حق كما أن الحياة حق، ووعد الله حق، وهو أوسع وأقوى وأثبت من الموت والحياة جميعًا.

راح طه حسين وكأنه يحادث مشرفة أمامه مرة أخرى، فكان يراه من حيث لا يراه الآخرون، وقف يقول له: كنت مودعًا لي إذن، كنت على شاطئ البحر، تضع إحدى قدميك على السلم الذي سترقى عليه السفينة التي نعرف متى تترك الساحل، ثم لا نعرف متى تبلغ الساحل الآخر؟! كانت تحية وداع إذًا،

ولم يكن ما تم بيني وبينك من الموعد إلا غرورًا من غرور الحياة، وهل الحياة الدنيا إلا متاع الغرور؟!

ويكفكف الحاضرون الدموع، وتعج القاعة بالتنهُّدات والأسى، ولا يقف هذا الجهاز عن العرض بالصوت والصورة، فلم يكن هذا الجهاز سوى ذاكرةِ صديقِه طه حسين، بل ذاكرةِ كل مَن أحبُّوه وهم يخرجون مُتَّشِحِينَ بالسَّوَاد.

وكما كان وقت المحكمة ضيِّقًا كحياته إلا أن الحكم في آخر الجلسة، فكل منا يستطيع أن يحكم عليه من خلال ما وصل إلينا من وقائع ثابتة لم يختلف عليها اثنان، وإن كانت حياته شبابًا يتجدد دائمًا فهو لم يعرف التقاعد ولا الشيخوخة، وإنما رحل بعوده الأخضر وعقله النضر المتفتح على العالم، وبالرغم من مرور أكثر من قرن على مولده وأكثر من خمسين سنة على رحيله فإنني وجدتني بجواره جنبًا إلى جنب، وأحسست بصداقة تجمعني به، رغم أنه يفصل بيننا نصف قرن من الزمان، في حين أشعر بالغربة عن بعض الناس الذين لا يفصلني عنهم سوى بضع خطوات، وشعرت بروحه ودفء مشاعره وإصراره على العمل والإخلاص للوطن، كان يجتمع بداخله العلم والدين، ويسير كل منهما إلى جانب الآخر، يتكاملان ولا يتعارضان، وشعرت بالدهشة عندما وجدت بعض الناس لا يشعرون بهذه القيمة المصرية العربية و العالمية التي سبقت بعقليتها الغرب، وفخرت بأنها عقول عربية لم تتحكم فيها عقدة الخواجة، ولم يعد من بلاد أوربَّا؛ ليرطن بكلمات إنجليزية في وسط لغته العربية، بالرغم من أنه أجاد الإنجليزية كأهلها إن لم يكن أفضل، فقد قرأ أدبهم وعلومهم بلغتهم، ولكنَّ الذين يُنْكِرُون حقه بعد قرن من الزمان ولا يستشعرون أهميته، لا لشيء إلا جهلهم بهذه القيمة، أو مصلحة عليا تجعلهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا.

حيرة وغموض

من الغريب أن د. علي مصطفى مشرفة عاش واضحًا في حياته، وكرَّس كل أيامه لعلمه وبلده، وأمام هذا العمل الضخم والموسوعية التي اتصف بها، نجد تناقضًا غريبًا ومثيرًا؛ فالمعلومات عنه قليلة! بل والأغرب أن حقيقة موته تظل غامضة! فالبعض يقول: إنه مات مسمومًا ضمن ملف اغتيال علماء الذرة. والبعض يقول: إنه مات في بيته وعلى فراشه. والبعض يقول: إن موته كان على يد السراي، وتورط الملك في اغتياله؛ للصدامات العديدة، والمواقف التي كانت بينه وبين السراي.

على أية حال، أصبح الرجل في ذمة الله، ولكن بقي جزء لا يمكننا الجزم به؛ لأنه لم يعد بإمكاننا معرفة ذلك رغم التكنولوجيا الحديثة، وبالرغم من ظهور حقائق تاريخية مغايرة عن الفراعنة منذ خمسة آلاف عام، ولكنني أرى أنه لا مانع أن يُقْتَلَ في بيته! بل من الطبيعي أن يتم تغليف موته بشكل طبيعي يُبْعِدُ الشبهة عن الجناة الحقيقيين، وأميل إلى أن موته كان ضمن سلسلة اغتيالات العلماء العرب - وبخاصة - المهتمين بالذرة؛ حتى لا يكون لهم وجود، وبالتالي نصبح أمة بلا عقول، وعندما يحققون ذلك فقد ملكوا زمام الأمور، فما قيمة الأمم دون عقول مفكرة؟!

هل تستطيع أمة أن تصنع مستقبلًا مشرقًا لبلادها دون علماء أو دون عقول مفكرة؟! ولكنَّ بلاءنا في هذه الحياة أن ندافع عن الحق الذي يراه الغرب باطلًا وإرهابًا، ولكننا كما كنا أسيادًا ذات يوم وكان الغرب في عصوره المظلمة سنعود للسيادة، وسنعود لذلك اليوم الذي يسود فيه الحق ويعود لأصحابه، ويعود الغريب إلى دياره مهما طال الزمان، ولكننا نحتاج إلى العلم والدين؛ ففيهما كل جوانب الحياة، فلنجعلهما طريقنا المستقيم.

مشرفة في الذاكرة...

على الرغم من مرور كل هذه السنوات الطويلة على موت العالم الجليل مشرفة، فإن مَن يقرأ سيرته يجد أن حمى غريبة تسري في جسده؛ حمى العلم والدين والقومية والطموح لغد أفضل لبلادنا، وحب اللغة العربية والاعتزاز بها، والاهتمام بلغة الغرب لا للتعالي بها على الآخرين من عباد الله الذين لا يفقهونها، ولكن لكي نفهم هؤلاء القوم انطلاقًا من المثل القائل: مَن عرف لغة قوم سادهم.

سرت هذه الحمى في جسدي منذ عرفت وقرأت عن مشرفة، ولكنها تمكَّنَتْ مِنِّي عندما اندمجت معه في حياته الشخصية ومقالاته العلمية والأدبية، وقررت أن أقدم للقارئ معلومات عن مشرفة تروي عطشه، وحاولت أن ألتقي أحد أقاربه؛ فاتصلت كثيرًا بابن أخيه الأستاذ الدكتور علي عطية مشرفة، ولكن للأسف يأتيني في كل مرة جرس الهاتف؛ ليعلن عن عدم وجوده في المنزل، وفقدت الأمل في وجوده، وقررت أن أكتفي بهذا القدر، ولكن عاودني الأمل ثانية قبل أن أختم صفحات الكتاب الأخيرة؛ لعلي أشفي الجوع الكبير الذي بداخلي نحو هذه الشخصية التي أتمنى كثيرًا أن أقابلها وجهًا لوجه وأحادثها، فتأثيرها يتغلغل في نفسي عبر كل هذه السنوات؛ لنتعلم منها الكثير، بهذا الأمل طلبت رقم الهاتف للمرة الألف، ولم أصدق نفسي عندما جاءني صوت آنسة رقيقة تجيبني: آلو..

وعرفت منها أنها ابنة الدكتور عادل عطية مشرفة ابن أخي العالم الجليل، وهو من مواليد عام ١٩٣٨م، تخرج في قسم الرياضيات بكلية العلوم بجامعة القاهرة، وسافر إلى لندن للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه في العلوم،

وقد تخصص في الرياضيات التطبيقية، وهو حاليًّا أستاذ متفرغ منذ سنوات عديدة، وحالته الصحية غير طيبة؛ فقد سافر إلى الخارج لإجراء عملية جراحية، وهو مازال في الخارج تحت العناية، وفي حالة لا تسمح له بالحديث مع أي شخص.

كان عندي أمل أن أجد عندها أية معلومات، ولكنها أنهت مكالمتها القصيرة بأنها لا تستطيع مساعدتي.

د. حامد عيد: مشرفة أبو الثقافة العلمية في مصر

بعد البحث الكثير، وجدت بعضًا من ضالتي في كلية العلوم؛ فقد قابلت أحد المهتمين بالعالم الجليل مشرفة، فقد قام بعمل احتفال بسيرته ومشواره العلمي، إنه الدكتور حامد عبد الرحيم عيد أستاذ الكيمياء بكلية العلوم، والمستشار الثقافي لمصر في المغرب سابقًا، ومدير مركز التراث العلمي بالجامعة.

سألته عما تحمله الذاكرة من سيرة د. مشرفة، فقال: د. مشرفة من بداية حياته رجل فذٌّ، لديه قدرات خاصة، فكان في تصاعد مستمر حتى وقت وفاته، وكان واحدًا من هؤلاء الذين لهم قدرات خاصة في المناظرات مع أحمد أمين وطه حسين والعقاد؛ حتى إنهم عندما رَثَوْه تكلموا عنه كأنه واحد منهم صاحب كلمة، وليس كعالم فيزياء ورياضيات.

مشرفة ترأَّس كلية العلوم وسط نخبة من الكبار في ذلك الوقت، وسط عمالقة يعد لهم ألف حساب، أمثال الدكتور علي إبراهيم والدكتور طه حسين، فكانت الجامعة في ذلك الوقت جامعة مُشَرِّفَةً، وأتمنى أن يعود لها هذا الشكل الذي كانت عليه في هذه الفترة.

مشرفة كان رجلًا متدينًا يقرأ القرآن، ويستشهد بآيات وسور منه في رسائله التي كان يرسل بها إلى أصدقائه، وإلى ذويه ثم يتبعها بحكمة؛ فقد كان مستغرقًا في الحكم الدينية التي كانت تحض على العلم، كما كان له باع كبير، فقد اتصل بألبرت أينشتين؛ فهو أبو الثقافة العلمية في مصر، كما أنه بسَّط العلوم وبسَّط كل مفردات العلم، وكانت في بداياتها في أوائل القرن العشرين، وكان يتحدث كما يتحدث الأوربِّيُّون، وبالرغم من إتقانه للغة الإنجليزية فإنه كان محافظًا على اللغة العربية، وكانت هواياته متعددة؛ فكتب في الموسيقى، وكان له العديد من «النُّوَت» الموسيقية، كما ترجم العديد من القصائد الإنجليزية والفرنسية، ووضع - بمشاركة واحد من الأساتذة وهو الدكتور محمود مختار - نغمة جديدة على البيانو العربي، وكتب في كل الجرائد المصرية والعالمية، وكان عليه أن يثبت أن لكلية العلوم أنيابًا؛ فكانت كل أوراق البكالوريوس يتم تصحيحها في جامعة لندن بواسطة أساتذة إنجليز، ومن هنا فدرجة كلية العلوم درجة عالمية معترف بها، فلا يطلب من طلابها إعادة تأهيل.

سألته: الدكتور مشرفة سبَّاقٌ في دعوته لاستخدام الأسلحة النووية في السلم كما نهجتم سيادتكم، فماذا ترون في هذه الدعوة؟

أجاب: دكتور مشرفة كان واسع الاطلاع، ومصادره كثيرة ومتنوعة، وعلاقاته واسعة مع العلماء على مستوَى العالم من الجنسيات كافة، فكان في وجهة نظره: لماذا لا تنحو مصر منحى البلاد الأوربية في استخدام الأسلحة النووية. في وقت لم يكن حينها عند الأوربِّيِّين العلم في مجال الذرة كما هو الآن، وبالرغم من أن مصر في ذلك الوقت كانت تخضع للاحتلال الإنجليزي فإنه لم يتحرج أن يدعو إلى هذه الدعوة، وعلاوة على أنه تعلم في بلاد الإنجليز كان لا يتحمل أي كلمة تُقال عن مصر، عزيز النفس قوي الشكيمة، كانت لديه

طلاقة في الحديث سواء باللغة العربية أم الإنجليزية، ونادى في مقالاته وندواته بدخول مصر عصر الذرة والبحث العلمي.

أطلق مشرفة صيحاته لكل مَن له اهتمام بالبحث العلمي في مصر، ومن له قدرة على دعم البحث العلمي؛ فصرخ في الطلاب ليتعلموا ويهتموا بالعلم؛ فمصر لن تنهض إلا بالعلم، وصرخ في ميسوري الحال ليدعموا البحث العلمي في مصر، وصرخ في وجه الحكومة؛ هل ستؤكد دعمها اللامحدود للعلم والبحث العلمي؟! هكذا كان العالم مشرفة في ذلك الوقت.. في ظروف كانت فيها مصر تعاني من ضيق ذات اليد، أما الاحتلال الأجنبي فاهتم بالمخطوطات؛ حتى إنه استطاع أن يحقق إحدى الكتب للخوارزمي في الجبر والمقابلة بمساعدة د. محمد أحمد مرسي عميد كلية العلوم في ذلك الوقت.

فمشرفة واجهة مُشَرِّفَة لمصر والعالم، ويكفي أن أقول: إننا ما زلنا ننادي بكل ما كان ينادي به مشرفة حتى الآن ولكننا لا ننال أي استجابة، وأعتقد أن مصر سيكون لها شأن آخر إذا استمعت لصيحات مشرفة وأحمد لطفي السيد وأحمد زكي... وكل هؤلاء المخلصين الذين عاشوا في أوائل القرن العشرين، وكانوا يرغبون في دعم التوجهات المصرية ليكون لمصر شأن آخر، ويكفي أن أقول: إنه كان بصحبة د. مشرفة كوكبة من العلماء لم يتم كشف النقاب عنهم حتى الآن، أمثال: حسن أفلاطون ومحمود حافظ...

"ولو أخذنا في الاعتبار صرخات د. مشرفة
لوفرنا على أنفسنا ما نبذله الآن"

د. حامد عيد

أحلام مشرفة

يرى علم النفس البيولوجي أن الأحلام تنتج عن تحركات الأعصاب أثناء النوم، ويظل السؤال: لماذا نحلم أحلامًا هي أكبر ألغاز الحياة؟! ولو لم يحلم العلماء أصلًا أو توقفوا عن الحلم، فماذا يحدث؟ وماذا يحدث لو لم تتحقق أحلام العلماء؟

عندما سَأَلْتُ د. حامد عيد عن أحلام الدكتور مشرفة، وما تحقق منها وما لم يتحقق، فصمت برهة ثم تأوَّه، وقال: لا أدري - وكأنه يصرخ في صحراء - وأضاف: ولو أخذنا في الاعتبار صرخات د. مشرفة لوفَّرْنَا على أنفسنا ما نبذله الآن، ولكن العالم تغير والناس كذلك، والهوة بين العالم المتقدم والعالم النامي تتسع بشكل مضطرد وسريع، وقد كتبت مقالًا - ما أشبه الليلة بالبارحة - تحدثت فيه عن الدور الذي لعبه دكتور مشرفة في دعم القدرات المصرية في البحث العلمي، واعتبارًا من أن كليات العلوم هي معقل العلم الأساسية في مصر، وأنها إذا لم تتقدم بدعم من الجامعات والأثرياء والشباب، الذين يتم اختيارهم للدراسة بها فإن أشياء كثيرة ستقع؛ لأنها الكنز الذي سيدعم العلم في مصر.

سألته: تُرى، هل هناك دعم من الأثرياء للبحث العلمي في الجامعة؟

أجاب بمرارة: لا، وإذا نهضت كلية العلوم بجامعة القاهرة التي تحتفل بالمئوية الآن؛ فإن باقي الجامعات في مصر ستحذو حذوها في البحث والتقدم العلمي.

سألته: د. حامد، من الغريب أن دكتور مشرفة لم يكن يدعو لجمهورية أفلاطون المثالية حتى لا تتحقق أحلامه، ولكنه كان يدعو إلى أشياء علمية قابلة للتحقق والتجريب، فلماذا لم تتحقق أحلامه؟!

أجاب: المنظومة متكاملة، فمَن يتقدم في العلم يتقدم في المناحي كافة؛ فنحن لم نحافظ على دور مهم جدًّا وهو الثقافة؛ فدور مصر المحوري في الثقافة على مستوى العالم العربي تقاعسنا فيه، فأنا أعتبر أن مصر كانت قادرة على أن تجمع العرب بليلة من ليالي أم كلثوم! فعندما كنت سفير مصر في المغرب كنت ألاحظ شيئًا غريبًا جدًّا - برغم بُعد المسافة الكبيرة التي تُقدر بثلاثة آلاف ميل؛ لأنهم كانوا شغوفين بما يحدث في مصر – وهو أن الثقافة المصرية مهمة جدًّا لهم، ولكن للأسف تخلت مصر عن دورها الثقافي؛ فدور مصر محوري على الأقل على مستوى الدول التي تتحدث العربية، ولكن للأسف نحن في العد التنازلي؛ لأن كلًّا منهم يحب أن يعمل ثقافة ذاتية، ولا نلومنَّ إلا أنفسنا، فنحن الذين فرطنا، نحن نحتاج إلى دفعة قوية؛ لنعود إلى دورنا المحوري.

سألته: أين نحن من العالم في عصر التكنولوجيا الحديثة؟ ولو عاد مشرفة، هل سيفاجأ بما آل إليه حال مصر في الثقافة والبحث العلمي؟

أجاب: سؤال تخيلي، ولكن عندما نتحدث عن تاريخ العلم ورُوَّادٍ فطاحلَ حققوا لمصر هذا القدر - بالرغم من وجود أشياء كثيرة في تاريخ العلم لم تسجل - فلا يجب أن نتباكى على الماضي؛ فالعلم سلسلة حلقات متصلة، ومَن ليس له ماضٍ ليس له حاضر، ووحْدَةٌ واحدة من تاريخ مصر الفرعونية تساوي الفترة التي أنشئت فيها أمريكا بأكملها.

سألته: إذا كنتم تنادون بأفكار نادى بها مشرفة منذ نصف قرن ولم تتحقق؛ فهذا معناه أننا في مكاننا، فأين التقدم الذي نسمع عنه؟

أجاب: التقدم فردي؛ وهم الذين يذهبون ليتعلموا في ظل بعثات، ولكن لا يمكن أن نقول: إنه ليس هناك أمل؛ فالأمل موجود لو خلصت النية، وإذا لم نستمرئ الكسل والعجز، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

علينا أن نبث في شباب اليوم الحماس والقوة، ونعلمهم أنه لن تقوم لمصر قائمة إلا إذا تعلموا بشكل جيد، ولابد أن يتم التخلص من الأسلوب التلقيني في التعليم، وأملي أن تتم الاستعانة بخبرات سابقة؛ بحيث يجتمع العلم مع التطبيق كمنظومة كاملة، وتشهد مصر من خلال هذا الأمر نهضة حقيقية.

أهم المراجع

- أحمد أمين: سياحة في العالم، مجلة الثقافة، بتاريخ ١٧/ ٨/ ١٩٤٣م.
- أحمد بهجت: صندوق الدنيا، جريدة الأهرام، بتاريخ ١٦/ ٨/ ٢٠٠٨م.
- أحمد عبد الرحمن سباق: عميد العلم في مصر والشرق، الطبعة الأولى ١٩٥٠م.
- أحمد فؤاد باشا: علي مصطفى مشرفة من رواد القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- إسلام أون لاين: د. علي مصطفى مشرفة.
- أحمد المسلماني: مصطفى مشرفة، المصري اليوم، بتاريخ ٢/ ٩ / ٢٠٠٧م.
- أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيَّرُوا وجه العالم، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٦م.
- عطية مشرفة: ثروة خسرها العالم، مركز كتب الشرق الأوسط، ١٩٦٦م.
- علي مصطفى مشرفة: أين يسير بنا العلم إلى العمران أم إلى الدمار؟! الهلال، ديسمبر ١٩٣٤م.
- علي مصطفى مشرفة: مقام الإنسان في الكون، مجلة الثقافة، بتاريخ ٩/ ١١/ ١٩٤٣م.
- سلسلة أقرأ، العدد (٣٨): علي مصطفى مشرفة: النظرية النسبية الخاصة، القاهرة، لجنة التأليف والنشر ١٩٤٥م.

- علي مصطفى مشرفة: العلم والأخلاق، حديث إذاعي، ١٩٤٦م.
- علي مصطفى مشرفة: كيف ينبغي أن يُوَجَّهُ العلم والعلماء لتحقيق تعاون عالمي، محاضرة في الجامعة الأمريكية، بتاريخ ٥/ ٢/ ١٩٤٣م.
- علي مصطفى مشرفة: العلم والصناعة، حديث إذاعي، بتاريخ ٩/ ٤/ ١٩٤٥م.
- فهد عامر الأحمدي: علوم يُحْظَرُ دراستها، صحيفة الشرق الأوسط، بتاريخ ٢٩ / ١/ ٢٠٠٧م.
- دين كينيث سايمنتن، ترجمة د. شاكر عبد الحميد، مراجعة د. محمد عصفور: العبقرية والإبداع، سلسلة عالم المعرفة، يناير ١٩٧٨م، العدد (١٧٦).
- حامد عبد الرحيم: مصر والعرب والخيار النووي، جريدة الأهرام ٢٠٠٦م.
- محمود علي مكي: سيرة حياة علي مصطفى مشرفة، الأهرام بتاريخ ١٤/ ٣/ ٢٠٠٠م.
- محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
- محمد الجوادي: مصريون معاصرون، ١٩٩٩م.
- مصطفى مشرفة: كيف يعيش المرء هنيئًا في هذه الحياة، ١٩٢٧م.
- ويكيبديا الموسوعة الحرة: د. علي مصطفى مشرفة.
- ويكيبديا الموسوعة الحرة: د. محمود حافظ.

الفهرس

أينشتين العرب

علي مشرفة

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة؛ أينشتين العرب من خيرة أبناء مصر، ومن أعظم العلماء الذين أضاؤوا صفحات التاريخ المصري والعربي، وكللوه بأكاليل الفخار.

لقد كرس مشرفة حياته للعلم والبحث البنَّاء؛ راجياً أن يتحقق الحلم، وأن تعود مصر لمجدها الحضاري، وكان أول من دعا لمشروع مصر النووي؛ آملاً أن تمتلك مصر القوة الرادعة، وكم علت صيحاته بضرورة الاهتمام بالبحث العلمي، فكان يراه سبيل مجد الأمم حتى لا تُفترس في عصر لا يعترف إلا بقانون القوة.

إن الدكتور علي مصطفى مشرفة شخصية فريدة من نوعها؛ فقد كان مثالاً للعالم المنكب على أبحاثه، المستغرق في الدراسات العلمية حول الذرة والطاقة النووية، وقد احتل من خلال نظرياته وأبحاثه العلمية مكانة كبيرة، ومنزلة عظيمة؛ لا تقل في البحث العلمي الذري عن مكانة ألبرت أينشتين.

وهذا الكتاب يغوص في شخصية هذا الراحل العظيم، ويسبر أغوار هذه الشخصية عبر صفحاته المضيئة .. حيث يتناول الكتاب طفولة مشرفة ونشأته وشبابه، والمراحل التعليمية في حياته، وزواجه وأولاده وحياته الاجتماعية.. ورحلاته.. وما قيل عنه في حياته وبعد رحيله.

وقد ركزت الكاتبة على أفكار الدكتور مشرفة وأبحاثه العلمية
السياسية واتجاهه الحزبي .. ولم تهمل الجوانب الأدبية في حيا
فقد تناولت جانباً كبيراً من أدبياته التي امتازت بالرقة والعذوبة
عباراته ذات الأسلوب العربي الرصين.

لقد استطاعت المؤلفة - من خلال هذا الكتاب - أن تقدم
الدكتور مشرفة العلمية والفكرية؛ من يوم أن استقبلته تربة مص
أرضها، وحتى اتشحت عليه مصر والعروبة والإسلام شهيداً حف
العلماء المقتولين على جنبات طريق البحث العلمي.



للشراء عبر الإنترنت
www.dfa.elnoor.com
(لا حاجة لبطاقة ائتمان)

زوروا موقعنا
www.daralfarouk.com.eg
www.darelfarouk.com.eg

دار الفاروق
للاستثمارات الثقافية
نحن ❤ الكتب



